الطمع فى رحمة الله -١

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

إن أدنى أهل الجنة منزلاً رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، و مثّل له شجرة ذات ظل ، فقال :

أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة ، فأكون فى ظلها ، فقال الله : هل عسيتَ أن تسألنى غيره ؟

قال : لا و عزتك ، فقدمه الله إليها ، و مثّل له شجرة ذات ظل و ثمر.

فقال : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، و آكل من ثمرها .

فقال الله : هل عسيتَ إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيْرَهُ؟

فيقول : لا و عزتك . فقدمه الله إليها ، فيمثل الله شجرة أخرى ذات ظل و ثمر و ماء ، فيقول : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، و آكل من ثمرها ، و أشرب من مائها .....".

حديث صحيح أخرجه مسلم و أحمد و الترمذى و غيرهم .

....

هذا جزء أول من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . عن أدنى أو أقل أهل الجنة منزلاً أو درجة يوم القيامة . و نحن نعلم أن الناس يوم الحساب ثلاثة أنواع :

الأول: يدخل الجنة بإذن ربه ثواباً على إيمانه و طاعته و التزامه .

و الثانى : يدخل النار جزاء وفاقا لكفره و ظلمه و بغيه .

و الثالث : يبقى على الأعراف ، أى بين الجنة و النار لتقصير هنا أو هناك ..

و هذا النوع الثالث أقرب إلى الجنة لأن الله - جل و علا - صرف وجهه عن النار و كفاه شرَّها و عذابها .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آيات مستفيضة ، نكتفى منها بالإشارة إلى موقف النوع الثالث .

يقـــول تعـــالى : "وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ "(الأعراف : ٤٤-٤٧)

- يقـــول المفســـرون : إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا أهل النار.

وفى الآيات التى قرأناها قبل قليل نجد إشارة إلى الحجاب الذى يفصل بين الجنة و النار ، و يقف عليه أهل الأعراف ، وهو سور ذكر فى آية أخرى .

حيث يقول الله تعالى :

".....فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ "(الحديد : ١٣)

هذا السور يمنع وصول أهل النار للجنة ، و على هذا السور رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل النار و أهل الجنة بسيماهم أى بعلامتهم التى ميّزهم الله بها ، فأهل النار يُعرفون بسواد وجوههم ، و أهل الجنة يُعرفون ببياض وجوههم .

ورجال الأعراف يحبسون على السور حتى يقضى الله فيهم ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، و إذا نظروا إلى أهل النار ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

رجال الأعراف ، ينظرّون دائماً أو معظم الوقت إلى أهل الجنة ، و يرجون ربهم أن يقربهم منها ، وهم بهذا الوضع أو فى أهل الجنة منزلاً ، بحكم أن الله صرف وجوههم عن النار ، و الصرف عن النار يعد رحمة من رحمات الله .

"مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ "(الأنعام ١٦)

فأهل النار يمثلون صورةً يهرب منها الناس جميعاً . و يسعون إلى الإبتعاد عنها و تضم رؤساء الكفر و أتباعهم . الذين ظنوا أن جمعهم للمال و استكبارهم عن الإيمان سيحميهم من العذاب يوم القيامة . ولكن هيهات ! فرجال الأعراف يسألونهم فى توبيخ و تقريع و تهكم مشيرين إلى أهل الجنة .

"أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ....."(الأعراف ٤٩)

و يرزقون ذلك بمخاطبة أهل الجنة : "..ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ "(الأعراف :٤٩)

وفى قصتنا التى يقدمها لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نجد تعبيراً عملّياً أو تطبيقا واقعيا لأشواق أهل الأعراف أو أدنى الناس منزلاً من الجنة، لدخول الجنة و الاستمتاع بها ، انطلاقاً من طمعهم فى رحمة الله سبحانه التى وسعت كل شىء .

فتتمثل للواحد منهم شجرةٌ ذات ظل . مجرّد شجرة تظهر أمامه ، فيدعو ربه ويطلب منه أن يقترب منها ليكون فى ظلها ، فيستجيب له الرحمن الرحيم

و يسأله : هل عسيت أن تسألنى غيره ؟

أى هل ستطلب منى بعد ذلك طلبا آخر.

فيقول له : لا و عزتك .

ثم يمثلّ له شجرةً ذات ظل ، و فيها ثمر..أى شجرة أفضل من الشجرة السابقة ، لأن بها ثماراً إلى جانب الظل ، و هنا تتحرك غريزة الطلب و الرغبة فى الزيادة ، فيطلب صاحبنا من ربه أن يقربه منها ، و يستجيب له ، سائلاً إياه : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟

فيقول : لا و عزتك . فيمثل له شجرة أخرى ذات ظل و ثمر و ماء . ولا يتردّد صاحبنا فى الطلب من ربه أن يقدمه إليها .. وحين يحقق طلبه ، يقول له : هل عسيت إن فعلت أن تسألنى غيره ؟

obeikandl.com

الطمع فى رحمة اللّه -٢

عرفنا فى الحلقة السابقة من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه كيف صوّر الرسول - صلى الله عليه وسلم - طمع أدنى أهل الجنة منزلاً ممن صرف الله وجهه عن النار، فى رحمة الله، حيث يطمع فى شجرةٍ ذات ظل، ثم شجرةٍ ذات ظلّ وثمر ثم شجرة ذات ظلٍّ و ثمرٍ وماء.

وهنا يسأله رب العزة :

" هل عسيت إن فعلتُ أن تسألنى غيره؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره، فيقدمه الله إليها. فيبرز له باب الجنة.

فيقول : أى رب، قدمنى إلى باب الجنة، فأكون تحت سجاف الجنة فأرى أهلها، فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها.

فيقول : أى رب ! أدخلنى الجنة، فيدخل الجنة، فإذا دخل الجنة قال :

- هذا لى ؟

فيقول اللّه له : تَمَن، فيتمنىّ، ويذكره الله عزوجل سل من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانى.

قال اللّه : هولك وعشرة أمثاله، ثم يدخله الله الجنة، فيدُخل عليه زوجتاه من الحور العين : فيقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا، و أحيانا لك.

فيقول : ما أُعطى أحدٌ مثل ما أعطيت "

صدق رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم.

....

نرى فى الجزء الثانى من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - تكملة لموقف أدنى أهل الجنة منزلة، أو أهل الأعراف الذين صرف الله وجوههم عن

obeikandl.com

النار فاستشرفت أبصارهم و قلوبهم الجنة و أهلها ، و تمنوا أن يكونوا من أهلها ، و يبتعدوا عن أهل النار وملامحهم التى تذكّر بالسيئات و الآثام .

لـو أن أهـل الأعـراف تفوقوا فى حسناتهم ، لدخلوا الجنة بفضل الله ، و صاروا بمنأى عن هذا الوضع المقلق الذى يجعلهم يرون الجنة ولا يستطيعون الدخول إليها ، ويشاهدون النار وما يجرى فيها من عذاب ؛ وهو ما يثير فيهم الندم و الحسرة بسبب تقصيرهم .

وقد رأينا من تقع مكانته فى أدنى الجنة ، أى قريبا منها ، كيف يطمع فى رحمة الله ، و يطلب المزيد . و كلما حقق له الخالق جل و علا رغبة تتصوّر له ، تمثلت له رغبات أخرى يطلب تحقيقها ، مع أنه فى كل مرة تتحقق فيها رغبة يقول لربه " لا و عزتك لا أسألك غيره".

لقد حقق له أولا رغبته فى الجلوس تحت شجرة ذات ظل ، وكان قد قرر ألاّ يسأل ربه شيئاً آخر بعد تحقيق هذه الرغبة و يتكرر الأمر حين يرغب فى شجرة ذات ظل و ماء وشجرة ذات ظل و ثمر وماء .

ويقول له ربه : هل عسيتَ إن فعلتُ أن تسألنى غيره ؟

فيقول : لا و عزتك ، لا أسألك غيره . وبعد أن ينال المراد ، يُفترض أن يكف عن الطلب . ولكنه لا يكف و يطلب ماهو أكبر من الشجرة و الظل و الثمر و الماء .

إنه يطلب الجنة نفسها : أى رب قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت سجاف الجنة فارى أهلها ".

إنه يتمنى أن يقترب من الباب ، ليكون تحت حافة الجنة أو السجاف وهو الإطار أو الشريط الخارجى الذى يظلل الباب .. ولكن الرحمن الرحيم يفاجئه بتحقيق ماهو أكبر من طلبه : يقدمه إلى الجنة ليرى أهلها وما فيها .

ولكن هل تتوقف المطالب من أدنى أهل الجنة منزلة ؟

إنها لا تتوقف ، فالطمع فى رحمة الله لا حد له ، ورحمة الله قريب من المحسنين ورحمته وسعت كل شىء ، ونجد طلباً أكبر من كل ما سبق ، حيث يطلب أدنى أهل الجنة منزلةً دخولَ الجنة ومشاركة أهلها : رب أدخلنى الجنة ، فيدخل الجنة . وتدهشه المفاجأة فإذا به يسأل : هذا لى ؟

وتكون الإجابة تعبيراً عن سعة الرحمة و امتدادها : نعمْ .

أى إن الحق سبحانه يطلب منه هذه المرة أن يطلب المزيد ، ويتمنى ما يريد حتى تنقطع به الأمانى ، أى لا يجد أمنية فى ذهنه أو داخلها نفسه يريد تحقيقها . فقد تحققت جميعاً بفضل الخالق الأعظم وصاحب الكون وما فيه جل شأنه وعظم جاهه .

إنه يحقق له ما يريد وعشرة أمثاله ويدخل الجنة برحمة الله .

ثم تدخل عليه زوجتاه من الحور العين – فى مفاجأة لا يتوقعها ولا ينتظرها.. وليست المفاجأة فى دخولهما فحسب ، ولكن فيما يقولانه حمداً لله وشكراً على نعمائه حيث تقولان : **الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك** .. أى خلقك لنا وخلقنا لك ، وضمنا فى دار النعيم الدائم الخالد إلى ما شاء الله .

إن هذه القصة الشائعة تحثنا على الأمل فى رحمة الله ، وعدم اليأس من رحمته . وتدفعنا دفعاً إلى معالجة تقصيرنا وقصورنا بكل ما نستطيع ، فكلما أكثرنا من الحسنات ازداد أملنا فى المولى سبحانه ودخول جنته والبعد عن النار والتحرّر من حبس الأعراف ووضعه القلق ..

ولا شك أن زراعة الخير فى الدنيا سيكون حصادها الجنة فى الآخرة بإذنه تعالى : "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ "(آل عمران . ١٣٢-١٣٤)

القول و الفعل

عن أسامة بن زيد – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول :

" يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتنزلق أقْتابُ بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرّحى .

فيجتمع إليه أهل النار . فيقولون :

يا فلان ، مالَكَ ، ألم تكن تأمر بالمعروف ، و تنهى عن المنكر ؟.

فيقول ، بلى ، كنت آمر بالمعروف ، ولا آتيه ، و أنهى عن المنكر و آتيه "

حديث صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم .

....

هذه قصة قصيرة جداً ، ولكنها طويلة الدلالة ممتدة المعنى فى كل زمان ومكان إذ إنها تعبّر عن آفة شائعة بين الناس ، وهى عدم تطابق القول مع الفعل أو الإنفصام بين القول و الفعل .

و هذه الأفة مرفوضة فى الإسلام ، و يحذر منها القرآن الكريم فى أكثر من مناسبة ، فيقول الحق سبحانه : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ "(الصف ٢-٣)

ثم إنها تتحول إلى سلوك مذموم يودى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار ، لأن صاحبه تحول إلى " منافق" ، يقول فى العلن غير ما يخفى فى الباطن .

"وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ "(البقرة ١٤-١٦)

و تصل هذه الآفة إلى درجة الخطورة حين يأمر المصاب بها الناس بالمعروف ولا يفعله ، و ينهاهم عن المنكر و يمارسه ، و لذا يصوّره الرسول – صلى الله عليه وسلم فى القصة التى يتضمنها الحديث الشريف تصويراً حيّاً مؤثراً ، يمثّل عبرة لمن يعتبر ، حيث يؤتى به يوم القيامة ، و يلقى فى النار ، أى إنه من أهل النار .

وحين يدخلها تخرج أمعاؤه من بطنه ، و تمتد أمامه ، وهو يدور وهى متصلة به فكأنه الحمار المربوط بحبل طويل إلى الرّحى يلف حولها ليحرّكها وهى ثابتة فى مكانها أو كما قال الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – تندلق أقتاب بطنه – أى تخرج الأمعاء من بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

والرحى من الأدوات التى كان يستخدمها الفلاحون منذ القدم حتى وقت قريب ولعلها مازالت موجودة فى بعض القرى و تتكون من حجرين مدوّرين ، يوضع أحدهما فوق الآخر الذى له قائم أو عمود فى مركزه يجعله يدور حوله ، و يوضع بينهما الحب الذى يراد طحنه .

و التشبيه بالرحى يأتى لقربه من الناس آنئذ ، فالدى خرجت بطنه و امتدت ويدور بها فى النار ، يشبه دوران الحمار فى الرحى ، حيث يحركها لتؤدى وظيفتها فى طحن الحبوب من قمح و شعير و غيرهما .

إن هذا المنظر الذى يكون عليه الآمر بالمعروف ولا يأتيه ، و الناهى عن المنكر و يفعله ، يشدّ أهل النار ، و يجعلهم يتساءلون :

يا فلان . مالك . ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ؟

إنهم يستغربون ، أو يندهشون لوجوده بينهم ، فمن المفترض أن مثله لا يدخل النار وقد استجاب لمنهج الإسلام فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ،

كما يقول تعالى : "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ....."(آل عمران : ١١٠)

وكما يقول أيضا : "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(آل عمران : ١٠٤)

ولكن صاحبنا ، كان يقول غير ما يفعل ، و يطبق عكس ما ينادى به ، فكان مثله مثل بنى إسرائيل الذين أمروا الناس بالبر ، و نسوا أنفسهم ، و أشار إليهم الحق سبحانه بقوله : "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "(البقرة ٤٤)

و صاحبنا هو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

لا تنـه عـن خلـق و تـأتى مثلـه ... عـار عليـك إذا فعلـت عظـيم

إن منهج الإسلام يقوم على المطابقة بين القول و الفعل ، بين الاعتقاد و السلوك و الذين يظنون أن الشكل يكفى عن الجوهر واهمون ، و لعل الحكمة الشعبية عبّرت عن ذلك منذ زمن بعيد حين **قال البسطاء : " ربنا رب قلوب "** ..

أى إن السلوك لا يعبر بالضرورة عما فى القلب بالضرورة .

إن من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، مقصر فى حق نفسه و حق الإسلام و المسلمين ومن ينهى عن المنكر و يفعله ظالم لنفسه و للإسلام و المسلمين ، و لذا كانت عقوبته شديدة يوم القيامة ، لدرجة أن تخرج أمعاؤه من بطنه ، و يدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

إن خيرية الأمة الإسلامية تقوم على الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و هذه الخيرية تتحقق بالتنفيذ الصادق المخلص ، أما التناقض أو الفصام بين القول و الفعل فليس من الإسلام فى شىء .

****** ****

دعاء السفر عند الحج

قال ابن جُريج : أخبرنى أبو الزبير : أن عليا الأزديّ أخبره أن ابن عمر علمهم : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر ، كبّر ثلاثا ، ثم قال : "سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ"(الزخرف : ١٣-١٤)

اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البّر و التقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، و اطْوِ عنّا بُعده . اللهم ، أنت الصاحب فى السفر ، و الخليفة فى الأهل .

اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، و كآبة المنظر و سوء المنقلب ، فى المال و الأهل ".

و إذا رجع قالهن ، وزاد فيهن : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " أخرجه مسلم .

....

يمثل السفر بصفة عامة مشقة للناس ، وخاصة المرضى وكبار السنّ وأصحاب الضرورات ، والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا من خلال ما رواه ابن عمر – رضى الله عنهما ، كيف نبدأ السفر بالدعاء ...

و الدعاء كما نرى فى العبارة هو الطريق لرضا الله ، و إذا رضى الله عن عبد يسّر له أمره ، وسهّل له الصعب ، و حقق له ما يتمناه :

"وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ....." (غافر:٦٠)

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "(البقرة ١٨٦)

و يبدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – دعاءه ، منذ أن يرتقى راحلته أو ناقته التى يستوى فوقها إيذاناً بالشروع فى السفر إلى الحج ، فإذا استوى على بعيره قرأ الآيتين الكريمتين من سورة الزخرف "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ" ، وفيهما تنزيه لله و تسبيح له ، فهو الذى سخر لنا الركائب التى نركبها سواء كانت حيواناً – كما كانت فى الزمن الماضى و لم تزل فى الزمن الحاضر ، أو اختراعاً اخترعه الإنسان قديماً و حديثاً مثل السفن أو البواخر والطائرات و الأقمار الصناعية ، فضلاً عن القطارات و أشباهها و السيّارات المتنوعة ؛ فلولا التسخير الإلهى لهذه الوسائل الحية أو الآلية لما استطاع الإنسان أن ينتقل بسهولة و يسر وسرعة إلى الأماكن البعيدة ، ولذا كان على المسلم أن يتذكر تلك النعمة العظيمة التى أنعم الله بها عليه ، وذلّل له هذه الركائب ليصل إلى أماكن الحج أو غيرها . ويجب أن يكون هذا التذكر قائما على تسبيح الله و حمده و تنزيه ، و الإيمان بالعودة إليه أو الانقلاب إليه بعد انتهاء الحياة الدنيا .

و يعلمّنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – كيف ندعو بعد أن نقّر للمدعو بالعبودية و التنزيه و القدرة المهيمنة على الكون ..وهو دعاء يتفق مع طبيعة المسلم فى حركته و سكونه ، وعلنه و سرّه ، فيقول : " اللهم ، إنا نسألك فى سفرنا هذا البّر و التقوى" و البرّ اسم جامع لكل أنواع الخير و المعروف ، و التقوى هى الخوف من الله فى السرّ و العلن أو هى كما عرفها الإمام علىّ – رضى الله عنه – الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل و الرضا بالقليل و الاستعداد ليوم الرحيل ".

فالحاج أو المسافر يطلب من ربه أن يمنحه الخير ، و يوفقه إلى التقوى وهو سائر فى طريقه إلى الحج حيث يؤدى الفريضة أو هو مسافر إلى مكان ما ليؤدى عملاً أو يزور أهلاً أو قوماً ، و يعطف على ذلك الطلب الرجاء فى عمل ما

يرضى الله ...وتلك آية المسلم الذى يتحرك بالخير و المعروف و يعيش من أجلهما طمعا فى عفو الله ورضاه .

و لأن السفر ، حتى لو كان بأسهل الوسائل و الطرق ، فيه مشقة و عناء و جهد كبير ، فإن المسافر المسلم ، يطلب من ربه سبحانه الذى سخر له الوسيلة ، أن يهوّن عليه السفر وما فيه من مشقات و معاناة و متاعب " اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده " فتهوين السفر جعله سهلا و ميسراً ، و اطوعنا بعده ، أى اجعله قريباً ، ولا تجعله بعيداً فكلما بعدت المسافة ازدادت الشقة و تضاعفت المتاعب ، و من ييسّر الله سفره يقرّب إليه المسافة البعيدة ، فلا يستشعر ثقلها و صعوبتها ..و نحن نعلم أن المشرّع الإسلامى أجاز للمسلم المسافر سفرا بعيداً أن يقصر الصلاة و يجمعها ، و يفطر رمضان وفقا لضوابط يعلمها الفقهاء والمتخصصون .

و كما يعترف الحاج أو المسافر فى بداية دعائه بهيمنة الخالق و قدرته على كل شىء ، فهو يدعوه ليكون صاحباً فى السفر يرعى المسافر ، و أن يخلفه فى أهله و أسرته ليرعاهم و يتولى أمرهم .. فمن غيره يكون نعم الصاحب ، و نعم الخليفة ؟ لا أحد .

ثم يدعو الحاج أو المسافر كما دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر – أى شدّته و مشقّته ، و كآبة المنظر ، و سوء المنقلب فى المال و الأهل ".

و الكآبة و السوء من الأمور التى تزعج الإنسان عموماً ، فكيف بالمسافر الذى يتمنى رؤية ما يبهج ، و يعود فيجد ما يسّره فى ماله و أهله ؟ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا أن نردد هذا الدعاء و نحن نبتدئ السفر ، و نقوله ونحن نعود منه ؛ مع زيادة قوله : آيبون أى عائدون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " ؛ مما يعنى أن المسلم يرتبط بربه دائما فى البدء و المنتهى .

الحج المبرور

عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – أى العمل أفضل ؟

قال:"إيمان بالله ورسوله" ، قيل : ثم ماذا ؟ قال :"الجهاد فى سبيل الله "

قيل : ثم ماذا ؟

قال :" حج مبرور" متفق عليه .

....

يقدم لنا هذا الحديث الشريف قصة قصيرة حوارية بين سائل و مسئول. السائل مجهول ، و يأتى الكلام عنه بصيغة المبنى للمجهول – أما المسئول فهو النبي – صلى الله عليه وسلم .

و يبدأ السؤال الأساسى الذى يتفرع عنه سؤال من جنسه : أى العمل أفضل ؟

والسؤال كما نرى اجتهاد من المسلم السائل ، عن أفضل الأعمال كى يمارسها أو يطبقها فى حياته الواقعية أو اليومية .

و تبدأ إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالحديث عن الجهاد فى سبيل الله بوصفه أفضل الأعمال التى تقرب إلى الله.

و الجهاد هو عماد الحياة الإسلامية الظافرة ، سواء كان الجهاد الأصغر وهو القتال ضد الأعداء ، أو الجهاد الأكبر وهو القتال ضد التخلف و الفوضى والكسل و الظلم و الفساد و الطغيان و الاستبداد و الضعف و الجهل و المرض و البؤس و الشقاء و التشرد ...و غير ذلك من مظاهر لا تصنع مجتمعا قوياً ولا حضارة فعالة ..

الجهاد الأصغر وسيلته السلاح و التدريب و الذخيرة و الخطط العسكرية...

أما الجهاد الأكبر، فوسيلته أو وسائله مختلفة، فهى تعتمد على العقل والفكر والعلم والثقافة والإبداع والعمل الدائب المنظم المستمر المتقن القائم على التعاون والتناصح والتفاعل الحىّ مع الغير..

هذا هو أفضل الأعمال التى أجاب عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – سائله عن أى الأعمال أفضل ؟

أما السؤال الثانى، فكانت إجابته من الرسول – صلى الله عليه وسلم

" حج مبرور"

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب فيه صاحبه معصية أو ذنباً.

إذاً الحج المبرور من أفضل الأعمال التى يجب أن يسعى إليها المسلم ليرضى ربه وهناك وجه شبه بين الجهاد والحج، فكلاهما يقتضى جهداً وعطاءً، وكلاهما فيه مشقة وعناء وحرمان .. والذى يصبر على الحج ومصاعبه، مثل المجاهد الذى يصبر على متاعب الحرب وقسوتها ..

بيد أن " الحج المبرور " الذى تحدث عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم هو الحج الخالص لوجه الله، حيث ينصرف المسلم بكليته إلى مولاه لا يشغله شىء عن جلال الموقف العظيم الذى يقفه وسط الحشود الهادرة والزحام الصعب متجرداً من المحيط والمخيط، ممنوعاً من التعطر والتأنق، متفرغاً للصلاة والعبادة، وقد يعمل بالتجارة ابتغاء من فضل الله، ولكنه فى كل الأحوال، لا يستطيع أن يقرب امرأته أو يقص شعره أو أظفاره .. فهو إذاً كأنه يجاهد أو فى مرتبة الجهاد.

ووصف الحج بالمبرور، ليخرج منه الحج الآلى أو الشكلى الذى يؤديه صاحبه دون أن يتأثر بمناسك الحج قلبيّاً ووجدانيا وشعوريّاً، فلا يكون متصلاً بحبل الله ولا مرتبطا بذكر الله .. هذا الحج الآلى يشبه ذلك الحج الذى يسعى

صاحبه إلى مراءاة الناس ، أو الحرص على شراء لقب يناديه الناس به فى بعض البلاد ، و يحقق له الجاه والسلطان على أمثاله من عشيرته وقومه .

و الأهم من ذلك كله أن الحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه معصية أو ذنباً ، و كيف نتصور مسلما ذهب إلى الحج يعبد الله و يتطهر من الذنوب ، فيرتكب ذنوباً جديدة أو معاصى أخرى تضاف إلى سجلّه الملىء بالذنوب و الخطايا ؟

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول فى حديث متفق عليه .

" من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "

و الرفث و الفسوق من الأمور المنهى عنها لأنها تخالف الإسلام ، و تدخل تحت دائرة المعاصى التى تفسد الحج و تجعله غير مبرور .. ولذا فإن الحج المبرور هو الذى يعيد صاحبه إلى الطهارة و النقاء و الصفاء مثل الطفل الوليد الذى لم يرتكب إثما ولا جريمة .. وأيضاً فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كما يقول حديث نبوى آخر متفق عليه .

لا شك أن الحج ليس مجرد مناسك يؤديها المسلم لتسقط عنه فريضة تعد الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولكنه إخبات و خوف من الله و صبر على البلاء و إقامة الصلاة و إنفاق فى سبيل الله .

وصدق الله إذ يقول :

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ " (الحج : ٣٤-٣٥)

**** ****

الحج مرّة واحدة

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : "يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجّوا"فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو قلت : نعم لَوَجَبَتْ و لما استطعتم " ثم قال :" ذرونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان من قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه " رواه مسلم

....

يحكى أبو هريرة رضى الله عنه قصة فرض الحج على المسلمين مرة واحدة كما يفهم من سياق الحديث الشريف الذى جاء فى خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما نتعرف من الحديث الشريف على ما ينبغى أن يكون بين السائل و المسئول فى مقام التشريع و التقنين حتى لا يكون هناك ما يرهق المسلم و يثقل على كاهله .

وفى الخطبة النبوية التى أشار إليها أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم – قال " يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا".

وهذا النداء للمسلمين يؤكد ما ورد فى القرآن الكريم و الحديث الشريف حول فرضية الحج بوصفه ركنا من أركان الإسلام الخمسة .

فقد قال الله تعالى :

".....وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ" (آل عمران :٩٧)

وقال تعالى : "وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ....." (البقرة : ١٩٦)

و قال تعالى : "ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ" (البقرة :١٩٧)

و هناك الحديث الشريف المشهور :" بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، و إقام الصلاة ، و إيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ".

و هذا يعنى أن الحج ركن من أركان الإسلام ، يؤديه كل قادر عليه ، بما تعنيه القدرة من مال وعافيه و أمن فى الذهاب و الإياب ، ومن يتخلف عن أدائه وهو قادر عليه فقد باء بالخسران المبين .

و يكشف لنا الحديث الشريف عن لهفة المسلمين إلى التعرف على دينهم مما يدفع بعضهم إلى كثرة الإلحاح بالسؤال على النبي – صلى الله عليه وسلم لمعرفة أصول دينهم وهو ما قد يوقعهم فى الخطأ ..

فعندما سمع الناس خطبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – قام رجل ليسأل : أكل عام يا رسول الله ؟

ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – سكت ، حتى كرر الرجل سؤاله ثلاث مرات ، فقال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – " لو قلت نعم لوجبت ولما

استطعتم " أي إنه لو قال نعم فى كل عام ..لصارت واجبة على المسلمين كل عام ، وهو ما يفوق طاقتهم وقدرتهم و لذا يعلم الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين درساً مهماً :

" ذرونى مــا تــركتكم " ، أى اتركونى دون سؤال ، طالما تركتكم دون إفاضة فى الكلام أو فى الحديث .. حتى لا تكونوا مثل أمم أخرى سبقتكم ، هلكوا بسبب أسئلتهم الكثيرة لأنبيائهم ورسلهم ، و اختلافهم عليهم ..

وقد كان بنو اسرائيل يكثرون من الأسئلة لأنبيائهم و يختلفون عليهم ، وفى سورة البقرة نموذج للإلحاح بالأسئلة على سيدنا موسى عليه السلام فى أمر البقرة المشهور ، وما سبقها من مواقف و ممارسات و أقوال ، انتهت بهم إلى قسوة القلب ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة .

" ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة ٧٤)

وهــو مــا يعــنى أن تكليف المسلمين بالحج مرة واحدة ، هو رحمة بهم و تيسير عليهم ، خاصة و أن الحكمة الإلهية تسبق المفاهيم المحدودة للبشر فى كل زمان و مكان . فهذا الصحابي الذى كانت مكة بالنسبة له قريبة أو يمكن الوصول إليها كل عام ، لم يكن يدرى أن المسلمين سيتجاوزون المدينة وما حولها ، بل يتجاوزون الجزيرة العربية إلى آفاق الأرض شرقاً و غرباً . و أن أداء الفريضة مرة واحدة فى العمر يصير حلم المسلم فى البلاد البعيدة و الأطراف المترامية .

**** ****

فى حجة الوداع

عن عائشة رضى الله عنها – قالت : خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عام حجة الوداع . فأهللنا بعمرة . ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" من كان معه هدىً فليهلَّ بالحج مع العمرة . ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعا " قالت: فقدمت مكة و أنا حائض . لم أطُفْ بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم : فقال :-

" انقُضى رأسك ، وامتشطى . و أهلّى بالحج ودعى العمرة " .

قالت: ففعلتُ . فلمّا قضينا الحّج أرسلنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم . فاعتمرتُ فقال : هذه مكان عُمْرتك فطاف الذين أهلّوا بالعمرة بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم حلّوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجّهم ، وأما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة ، فطافوا طوافاً واحداً . أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما.

.....

تروى عائشة – رضى الله عنها – قصة حجة الوداع ، وما يتعلق بها فى هذا الحديث النبوى الشريف ، وتقدم لنا بعض الأحكام التى ترتبط بالحج و العمرة، من حيث الإفراد أو القران أو التمتع ، كما تطرح مسألة الظرف الطارىء الذى يعترى المرأة ، ويعرف بالدورة الشهرية أو الحيض ؛ وهى فى طريقها لأداء مناسك الحج أو العمرة أو فى أثنائهما .و أيضا تشير القصة إلى ميقات الإحرام المكانى للعمرة بالنسبة لمن كان فى مكة و أراد العمرة .

و حجة الوداع هى الحجة التى قام بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى . و تحكى عائشة رضى الله عنها أنها خرجت مع الصحابة فى رفقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاهلّوا . أى بدءوا أو استهلوا بأداء العمرة قبل أداء الحج . وهنا أرسى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تشريعاً مهّماً بالنسبة للذاهبين لأداء المناسك ، حيث إن من صحب معه هدى. أى ذبيحة ، فله أن يقرن الحج بالعمرة و القران غير الإفراد .

فالإفراد هو أداء كل من الحج و العمرة على حدة ، دون ارتباط أحدهما بالآخر. أما القران فأداؤهما معاً بمناسك واحدة أو شعائر واحدة مقابل ذبح الهدى الذى يأخذه المقرن معه أو يشتريه فى أثناء تأدية المناسك .

و يروى عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحرم من ذى الحليفة إحراماً موقوفاً ، و خرج ينتظر القضاء ، فنزل الوحى وهو على الصفا فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كان معه هدى أن يحّج ، ومن ليس معه هدى أن يجعله عمرة .

وهناك روايات عديدة لهذه المسألة يدور حولها كلام كثير . ليس هنا مجاله و يرجح بعض بالنسبة لعائشة رضى الله عنها أنها أهلّت بالحج . و أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بيّن للناس . أن الجمع بين الحج و العمرة ممكن .

بيد أن العلماء اختلفوا حول الأفضل بالنسبة للإفراد و القران و التمتع فقال المالكية ، إن الإفراد أفضل . أما الحنفية فقد فضلوا القران . أما الشافعية و غيرهم فقد فضلوا التمتع ... وهو أداء العمرة ثم التحلل منها حتى قبيل الوقوف بعرفة ، فيبدأ الحاج أداء المناسك من جديد بعد الإحرام ، وفى القران و التمتع دم ، أى ذبح هدى فى أيام النحر.

و تثير القصة موضوعاً حيوّياً يتعرض كثير من النساء فى أثناء الحج وهو مجيء الدورة الشهرية أو ما يعرف في الفقه بالحيض .. وهذا الحادث يعفي

المرأة من الصلاة حتى تطهر بعد انقطاع الدم ، كما يعفيها من آداء المناسك إلا بعد الطهارة ؛ وقد قالت عائشة أنها قدمت إلى مكة وهى حائض ، فلم تطف بالبيت ، ولم تسع بين الصفا والمروة ، وأن هذا الأمر كما نفهم من سياق الحديث قد ضايقها مما اضطرها إلى الشكوى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمرها بذلك بعد انقطاع الدم والتطهر والاغتسال ، فأمرها بنقض شعرها أى تخليله بأصابعها ، ثم تمشيطه ، ثم البدء فى مناسك الحج من طواف وسعى ...ولما انتهت من فعل ذلك ، أرسلها مع شقيقها عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، وفيه مسجد "السيدة عائشة " الآن ، ويحرم منه أهل مكة والمقيمون بها عند ما يبدءون العمرة أو الحج ..فيصلّون ركعتى السنة ، ثم ينطلقون إلى الكعبة لأداء المناسك .

و تشير السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن التنعيم " هو مكان العمرة كما علمها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أما الذين نووا العمرة وطافوا بالبيت وبالصفا والمروة ثم حلّوا ، فقد طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم ..و هؤلاء هم المتمتعون أو الذين أفردوا ..أما الذين قرنوا الحج بالعمرة ، فإنمّا طافوا طوافاً واحداً .

و يبقى أن هذه القصة وقد جاءت من خلال حجة الوداع ، التى اكتمل فيها الدين"....ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ...." ؛ (المائدة ٣:)

قد رسمت معالم الركن الخامس من أركان الإسلام ، و كيفية النية و أداء الحج والعمرة ، إفراداً أو قراناً أو تمتعاً ..ووضحت كيف تتصرف المرأة حين يأتيها العارض الشهري ..وكل ذلك فى إطار التيسير الإلهى على المسلمين .

**** ****

التلبية وصفتها

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم كان إذا استوتْ به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهلّ .

فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وكان عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يقول هذه تلبية رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

قال نافع : كان عبد الله – رضى الله عنه – يزيد مع هذا لبيك لبيك ، وسعديك والخير بيديك لبيك ، والرغباءُ إليك والعمل .

و أخبر بعضهم عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما – قال : تلقفت التلبية من فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر بمثل حديثهم .

(أخرجه مسلم)

....

فى هذا الحديث الشريف نتعرف على قصة " التلبية" التى تعارف عليها الناس طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهم يؤدون فريضة الحج أو واجب العمرة .. فكل حاج أو معتمر يبدأ حجة أو عمرته بهذه التلبية تعبيراً عن استجابته لأوامر ربه وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

و عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يحكى لنا قصة التلبية كما رآها وسمعها من فم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيخبرنا أنه – صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهلّ .. أى إنه عند بداية إحرامه من الميقات المكانى للحج والعمرة بالنسبة لأهل المدينة ، وهو " ذى الحليفة " وركب راحلته ، أى ناقته التى تحمله من المدينة إلى مكة لأداء الحج

والعمرة . أهلّ أى بدأ ، والاستهلال هو البدء فى كل شىء ، واستهلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبدأ بالتلبية قائلاً :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

والتلبية معناها الاستجابة أو الإجابة ، ولذا فعندما يلبّى الرسول - صلى الله عليه وسلم - **قائلاً : لبيك اللهم لبيك** .. أى الاستجابة لك يا رب بعد استجابة ، وطاعة بعد طاعة والتزاماً بعد التزام .. كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - **يعلّمنا** : أن الإسلام هو الاستجابة والطاعة والالتزام ، فليس لأحد أن يخالف عن أمر ربّه ، طالما قبل بالدين الحنيف ، وآمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبل بالأوامر والنواهى التى وردت فى الكتاب والسّنة ، وهو ما يعنى الاستسلام الكامل والخضوع التام لمنهج الله دون تبديل أو تحريف أو تأويل خبيث؛ كما يحلو لبعض المنافقين ممن طمس الله على قلوبهم وآثروا الدنيا على الآخرة ، وتصوّروا أن الإسلام يشبه النظريات الوضعية أى التى يضعها البشر ، فيفسرونها على هواهم ، ويشرحونها بما يتفق وأغراضهم الدنيوية ولعل هؤلاء هم الذين قصدتهم الآية الكريمة فى قوله تعالى :

".....أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة : ٨٥)

وتحمل التلبية معنيين مهمين ، يشكّلان العمود الفقرى للإسلام ، وهما : التوحيد ، والإقرار بالعبودية لله .. فالحاج أو المعتمر حين يعلن طاعته لله ، فإنه يقرنها بالتوحيد : لبيك لا شريك لك " والتوحيد هو نفى كل ما عدا الله ، من مخلوقاته أو كائناته التى يتصور بعض الناس أنها يمكن أن تنفعهم أو تضرهم ،

فالذين عبدوا الحكام و الأصنام أو خضعوا للأقوياء أو ذوى الجاه و الأموال ؛ يشركون بالله الذى يملك كل شىء ، و يخضع له كل الخلق و الكائنات وما على الأرض وما تحتها ، و السماء وما فوقها ... إنه الملك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحداً .

و إذا كان التوحيد هو المعنى الأول للتلبية ، فالعبودية هى المعنى الثانى، الذى يقّر فيه المسلم بعبوديته الكاملة لله و نفهم ذلك من قول الحاج و المعتمر إن الحمد و النعمة لك و الملك " فهو المحمود على عطائه ، وهو المشكور على نعمائه التى يهبها لعباده جميعاً يطعمهم و يسقيهم و يمنحهم الصحة و العافية ، و العمل و الأمل، وهو قبل ذلك وبعده صاحب الملك الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ..

لذا كانت التلبية ليست مجرد دعاء أو هتاف ينطق به الحاج أو المعتمر ، ولكنها إعلان حىّ و مباشر عن الطاعة و الالتزام لمالك الملك و صاحب الكون ، بل إن الزيادة التى رآها ابن عمر ، فى تلبيته : لبيك لبيك ، و سعديك ، و الخير بيديك لبيك، و الرغباء إليك والعمل ، هذه الزيادة توكيد لما سبق من معنى التلبية ، فهو يكرر الاستجابة و الطاعة ، ثم يطلب منه المساعدة بعد المساعدة بقوله " وسعديك" كأنه يقول يا رب مساعدة منك بعد مساعدة كما يسند إليه الخير ، والرغباء و العمل. والرغباء أو الرُّغبْى : تعنى الطلب والمسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .

و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .لقد تلقف ابن عمر التلبية من فى أو فم رسول الله – صلى الله عليه وسلم ونقلها إلى الناس و ساروا عليها حتى يومنا هذا .. فكانت تعبيراً عن إيمان وخضوعاً لخالق الأرض و السماء .

**** ****

الحج .. و التجارة

عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال :

كانت عكاظ و مجنّة و ذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجردوا فى المواسم ، فنزلت

" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ....."(البقرة ١٩٨)

رواه البخارى

....

هذا الحديث الشريف يحكى أمراً يخص التشريع الإسلامى ، وهو التجارة فى موسم أو مواسم الحج .

وكانت العرب فى الجاهلية تتخذ من مواسم الحج على الطريقة التى كانت سائدة آنئذ ، فرصة لإقامة الأسواق التجارية التى يتكسبون منها ، فضلاً عن إقامة المناظرات الأدبية والشعرية بين الأدباء والشعراء مع كبار النقاد بمفهوم ذلك الزمان ..

كانت عكاظ من أشهر أسواق العرب فى الجاهلية و أعظمها ، وكان موقعها وراء مكان يقال له " قرن المنازل" بمرحلة أى عدة أميال ، ويتبع مدينة الطائف الشهيرة على طريق اليمن . وكان سوقها يعقد أو يقام فى شهر ذى القعدة و يستمر لمدة أسبوعين تقريباً ...

و بعد الانتهاء من سوق عكاظ ، يتركونه إلى مكان آخر فى مكة يقال سوق مَجِنَّة فينصبون السوق أسبوعين آخرين ..أى إن سوق عكاظ تستغرق نصف الشهر الأول من ذى القعدة ، و ذى المجنة تستغرق نصفها الأخر.

وبعدئذ ينتقلون إلى مكان آخر قريب من سوق مجنة يقال له " ذو المجاز " فيقيمون فيه السوق حتى يوم التروية ، قبل يوم عرفة بيوم واحد ، يوافق الثامن من

ذى الحجة ، حيث ينتهى السوق ، و يذهبون بعده إلى منى لإكمال مناسك الحج وفقا لمفهومهم الجاهلى .

قضية الاجار و الكسب فى مواسم الحج ، إذاً كانت عادة جاهلية قديمة موروثة وكانت مصدر رزق لكثيرين ينتظرونها من العام إلى العام . فلما جاء الإسلام أحسّ المسلمون بشىء من الحرج ، و شعروا أن التجارة لا تليق مع أداء المناسك على أساس أن الحج عبادة ، و العبادة لا تتفق مع التجارة ..ولكن الله الرءوف الرحيم بعباده لم يشأ أن يحرمهم من الرزق الذى ينتظرونه كل عام ، فنزلت الآية الكريمة تبيح لهم أن يتجردوا و يكسبوا وهم يؤدون المناسك ويقيمون الشعائر .

قال تعالى :"لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ "

(البقرة :١٩٨)

و نجد فى هذه الآية الكريمة ربطاً بين العمل و العبادة ، أو بين التجارة وذكر الله ، وهذا جانب من التيسير الإلهى على عباده ، ليخدم بعضهم بعضاً ، ولنا أن نتصور مثلاً أن كل الحجاج جاءوا لأداء المناسك وحدها ، ووقفوا حياتهم فى أثناء الحج على العبادة وحدها ، فمن ذا الذى يقدم لهم الطعام و الشراب ، و منذا الذى يقودهم فى المواصلات ، ويقدم لهم الخدمات الأخرى التى يحتاجونها فى العلاج و الدواء و الاتصالات و غيرها ؟

لابد إذاً أن تكون هنالك طائفة تقدم هذه الخدمات ، ولا بأس عليها أن تؤدى مناسك الحج ، و تستفيد بالوفاء بهذه الفريضة أو هذا الركن الخامس الذى يجب على المسلم أن يؤديه ليكتمل إسلامه .

ولاشك أن الحج ليس موسم تجارة أساساً بل موسم عبادة . ولكن لتجارة تأتى هامشاً إلى جانب العبادة ، و المشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هى الهدف وهى الغاية حيث يضيعون العبادة ، و المشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هى الهدف وهى الغاية حيث يضيعون ثوابهم ، لأن انشغالهم فى هذه اللحظة ليس بالله ، ولكن بالأموال ، و شتان بين هذا الانشغال أو ذاك .

إن الحج موسم من المواسم المباركة التى تعبر عن وحدة الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض و مغاربها ، و تسقط فيما بينها حواجز العرق و اللون و العنصر والغنى والفقر و الطائفة و المذهب ، و تتلاقى جميعاً حول هدف واحد هو التجرد لطاعة الله سبحانه ، والامتثال لأوامر ، وبالإضافة إلى ذلك تتشاور فيما يعنيها ويهمّها ، وتسعى إلى معالجة مشكلاتها و قضاياها بما يخدم الإسلام و المسلمين .

قال تعالى : "وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ "(الحج :٢٧-٢٨)

و الآية الكريمة تتحدث عن " المنافع" . بصيغة التنكير ، أى مطلق المنافع فليست التجارة وحدها هى المنافع ، ولكن هناك منافع أكثر حين يلتقى المسلم بالمسلم فيتعارفان ، و يعلم أحدهما ما يعانيه الآخر ، و أوجه المساعدة التى يمكن أن تقدم له .

وفى كل الأحوال ، يأتى الفضل الإلهى من خلال التيسير على المسلمين فى التجارة و غيرها "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ..."(البقرة :١٩٨) وهو الفضل الذى لا تحده حدود ، ولا يتوقف .

**** ****

دعاء العودة من الحج و الجهاد و السفر

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال :

كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدفد كبّر ثلاثاً ، ثم قال :

" لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . له الملك و له الحمد وهو على كل شيء قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون . لربنا حامدون . صدق وعده . ونصر عبده . و هزم الأحزاب وحده " أخرجه مسلم

....

إذا كان المسلم وهو يتهيأ للسفر إلى الحج أو إلى مكان آخر ، يدعو دعاء السفر الذى سبقت الإشارة إليه فى مكان آخر، و يبدأ بالآيتين الكريمتين من سورة الزخرف :"....سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ " (الزخرف :١٣-١٤)

اعترافاً بقدرة الله و حمداً على نعمائه ، فإنه بعد عودته من الحج أو الجهاد أو السفر عموماً يدعو الدعاء ذاته الذى قاله فى بداية سفره ، و يزيد عليه . أو يقول ما قاله الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حديث ابن عمر الذى بين أيدينا ، وهو يحمل المضمون نفسه أو قريباً منه ، و لكنه يركز على نكرة أساسية تربطه بربّه فى كل الأحوال .

و يصف عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – عودة الرسول – صلى الله عليه وسلم ، أو قفوله من الجيوش ، أى رجوعه مع الجيوش بعد الحرب ، أو السرايا أو الحج أو العمرة ، فيقول إنه إذا أوفى أى اقترب أو دخل على ثنية أى منعطف ، أو فدفد أى موضع من الأرض فيه غلظة و ارتفاع ، كبّر ثلاثا ، أى قال : الله أكبر ثلاث مرات ، و التكبير هنا له دلالة على الطاعة و الخضوع لله مالك الملك ، فهو الله الأكبر و الأحق بالذكر فى المواضع التى تبدو مستعصية أو موحشة أو مخيفة ، أو مثل بالنسبة للإنسان حالة تدهشه أو تحيّره.. فالتكبير هنا إعلان عن إسلام القلب لله ، و تعظيم له ، و ترك الأمر بين يديه فيما نعلم أو لا نعلم من أمر الظواهر الطبيعية أو غيرها .

إن السفر فى حد ذاته للجهاد أو الحج أو العمرة أو العمل أو صلة ذوى الأرحام أو حتى السياحة بالنسبة للمسلم هو حركة فى اتجاه خدمة الدين وطاعة الله و إقامة الشريعة و نصرة الإسلام .. و لبعض العلماء رأى لطيف فى هذا السياق، يرى أن

التكبير فى الأماكن العالية يشبه الأذان فوق المساجد ، و الأذان كما نعلم هو تعبير عملى عن تعظيم الحق سبحانه ، وتسبيحه و حمده تعالى ، واعتراف بقدرته و هيمنته ، وتمام نعمته على المسلمين بالنصر و العزة ..

و بعد التكبير ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكد على المعانى السابقة التى يحملها الأذان ، فهو يعلن التوحيد أو وحدانية الله الذى لا شريك له "لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ، و إعلان الوحدانية ليس مجرد تحصيل حاصل خاصة فى الأزمنة التى يخضع فيها بعض الناس لبعض من أجل المال أو الجاه أو السلطان أو المنفعة الدنيوية الفانية – و لكنه يمثل تذكيراً لهؤلاء و غيرهم بأن الله وحده هو صاحب الحول والطول ، وهو المهيمن القادر ، وهو الذى يملك الضر و النفع ، فينبه الغافلين ، و يوقظ الخاملين ، و يحيى النفوس الراكدة . " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " حماية للقلب و العقل من الاستسلام لمن ظنوا أنفسهم – توهماً وخطأ – أنهم يملكون رقاب الناس أو يستطيعون التحكم فى مصائرهم .

ولعل ما تلا ذلك من الدعاء فى الحديث الشريف يؤكد ما سبقت الإشارة فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : " له الملك و له الحمد وهو على كل شىء قدير " فالوحدانية تقتضى أن يملك الحق سبحانه الكون وما فيه من نعم وآلاء وهو ما يجعله يستحق الحمد على ما أعطى للخلق و يسّر لهم من وسائل الحياة و العيش فهو على كل شىء قدير ، ولا أحد يقدر على ما يقدر ، ولا يملك ما يملك .

و هنا يذكرنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالواقع ، وهو العودة من الرحلة بقوله : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون" و آيبون أى عائدون ، تائبون من كل ذنب و إثم ، طالبون للغفران و العفو ، ساجدون لله فى صلاتنا و عبادتنا .. ثم لربنا حامدون .. والحمد هو اعتراف بالنعم الإلهية و شكر للمنعم الذى أنعم بها ، وهو الله جل جلاله .

وفى ختام الدعاء إشارة إلى بعض ملامح نعمه و أفضاله على عباده ، خاصة المسلمين حين يقول – صلى الله عليه وسلم – " صدق الله وعده ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده " مذكرا بما جرى فى غزوة الأحزاب حين هزم الكفار بإرسال الريح والجنود غير المنظورين عليهم فارتدوا مهزومين ، وصدق الله وعده بنصر عبده محمد ، و نشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعدها العالم كله ..

فالحمد لله وحده ، صدق وعده ، و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ، وهو وعد قائم فى كل زمان و مكان .. طالما كنا آيبين عابدين ساجدين عاملين بأوامره طائعين له .

اتقاء الشبهات

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول :

إن الحلال بيّن و إن الحرام بيّن ، و بينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه و عرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا و إن لكل ملك حمى ، ألا و إن حمى الله محارمه ، ألا و إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب "

متفق عليه وروى بألفاظ متقاربة

....

يقودنا هذا الحديث الشريف إلى ضرورة التحرى و التثبت فى مسألة الحلال و الحرام ، وهى مسألة صرنا أحوج ما نكون إليها فى عصرنا الذى يحفل بكثير من الأمور التى يختلط فيها الحلال و الحرام ، و الصواب و الخطأ ، ومع قلة الدرس الفقهى وسطحية تعليم الشريعة ، يتوجب على المسلمين أن يفقهوا دينهم ، ويدرسوا شريعتهم بما لا يعطى مجالاً للخلط أو سوء الفهم .

ورواية النعمان بن بشير رضى الله عنهما تشير إلى ما سمعه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن وضوح الحلال و الحرام .. الحلال بيّن ، أى واضح و ظاهر .

و الحرام بيّن ، أى واضح و ظاهر .. فإذا قلنا مثلاً إن التجارة الأمينة حلال فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، لأن التاجر الأمين لا يغش ولا يكذب ولا يدلّس .

و العكس صحيح إذا قلنا إن الغش فى التجارة حرام ، فهو أمر معروف يدركه الناس حين يرون السلعة غير التى اتفقوا عليها أو طلبوها من التاجر الغشاش ..

ومعنى ذلك أن الأمور الحلال التى أوضح الإسلام إباحتها معروفة ويجمع عليها الناس ، فضلاً عن علماء الأمة الثقات . أما الأمور الحرام فتم الإجماع عليها أيضا مثل السرقة و الزنا و اللواط و الغش و التدليس و الشهادة الزور و غيرها .

كل هذا يعرفه الناس ولا يحتاج إلى بيان ، بعد أن اكتمل الإسلام أو اكتمل الدين فى حجة الوداع .

"...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ....." (المائدة :٣)

لكن هناك بعض الأمور المشتبهة التى يجد المرء نفسه حائراً أمامها لا يعرف أهى حلال أم حرام ؟ و يجد نفسه فى مأزق لا يعرف طريق الخلاص منه وخاصة فى الأمور التى استجدت بعد انتصار الإسلام و اكتماله ، و تطور الزمان و تعدد المكان ؛ فقد نشأت نتيجة لتطوّر الحياة و الزمان و المجتمعات و العلاقات ، و هذه الأمور يسهل الاحتكام فيها إلى أهل العلم واستفتائهم ، و معرفة الصواب من الخطأ ، و الحلال من الحرام ، لأنهم يملكون القدرة على القياس و معرفة أصول الحكم الفقهى و الشرعى . واجتهادهم فى هذا السياق محمود ، ولهم الأجر مضاعفاً إن أصابوا ، و مفرداً إن لم يصيبوا .

بيد أن هناك أموراً غير ذلك تشتبه على كثير من الناس ، ولا تتعلق بتطور ولا اكتشاف ولا اجتهاد .. إنها أمور ترتبط بالعلاقات و السلوكيات بين الناس ، والدخول إليها يثير الشبهات ، و يجعل من يدخل فيها محل ريبة و شك مما يترتب

عليه ضرر كبير أو أذى عظيم . مع أن النوايا قد تكون حسنة .. ولكن الناس لهم الظاهر والله يتولى السرائر ..

فموضع الشبهة الذى يثير الريبة والشك . يجب أن يكون المسلم على حذر منه ويبتعد عنه . حتى لا يسقط فيه .. ويقدم لنا الحديث الشريف مثالاً حيّاً لموضع الشبهة التى ينبغى للمسلم أن يحذرها و يبتعد عنها .

و يخلص الحديث إلى أن لكل ملك حمى ، و حمى الله محارمه ، وهو ما ينبغى الابتعاد عن هذه المحارم و الحذر من الوقوع فيها بعدم الاقتراب منها ، و يؤكد الحديث على أهمية إخلاص القلب لله فى مثل هذه الأمور. فالقلب مضغة ، أى قطعة لحم إذا صلحت صلح الجسد كله ، و إذا فسدت فسد الجسد كله ، وهو ما يعنى أن على المسلم أن يتقى الشبهات أو ما يثير الريبة و الشك فى أى مجال من مجالات القول و السلوك حتى لا تكون فتنة .

ومن اتقى الشبهات و ابتعد عنها فقد استبرأ لدينه و عرضه ، أى صلب البراءة أو صار بريئاً فى دينه و عرضه ،وهو ما ينبغى أن يتنبه له كل مسلم و خاصة فى أيامنا التى تكثر فيها المشكلات الاجتماعية بسبب الاقتراب من مواقع الشبهات أو الوقوع فيها ..

ولدينا مثل قديم يقول :احذر تسلم .

و صدق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم حين قال " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه و عرضه " و الدين و العرض أغلى ما يحرص عليه المسلم فى كل زمان و مكان .

**** ****

البر و الإثم

عن وابِصةَ بن مَعْبَد ، رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : " جئت تسأل عن البّر؟ قلتُ : نعم .

فقال : استفت قلبك ، البّر ما اطمأنت إليه النفس ، و اطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، و تردّدَ فى الصدر و إن أفتاك الناس و أفتوك "

حديث حسن رواه أحمد و الدارمى

....

يقدم لنا الحديث النبوّى الشريف قصة قصيرة للغاية حول البّر و الإثم ، بطلها وابصة ابن معبد رضى الله عنه الذى قدم على النبي – صلى الله عليه وسلم – يسأله عن البّر و الإثم ليستقيم إيمانه و يصلح إسلامه .

وقد جاء وابصة بن معبد رضى الله عنه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى عشرة رهط من قومه بنى أسد بن خزيمة فى السنة التاسعة للهجرة ، فأسلموا ورجع إلى بلاده ، ثم نزل الجزيرة ، وسكن الرّقّة و دمشق ، ومات بالرقة و دفن عند منارة مسجدها الجامع ، وقد روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أحد عشر حديثا ، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته ، وله عقب بالرقة أى أفراد من نسله ينتسبون إليه ..

و يلاحظ هنا أنه حين جاء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يسأل ولكنه – صلى الله عليه وسلم – عرف أنه جاء سائلاً ، و أنه يسأل عن البّر ، وهو ما أكده وابصة بقوله : نعم .

و كانت إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – قصيرة وشافية ومقنعة :

" استفت قلبك" أى اطلب الفتوى من قلبك ، من داخلك ، من ضميرك الحىّ ثم شرح معنى البّر والمقصود به :

البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والقلب المقصود فى هذا الحديث ، هو القلب الصافى النقى الذى لم يتسلل إليه الهوى ، ولم تدنسه الذنوب و الآثام .. هو القلب الذى يحتفظ بفطرته الإنسانية التى لم تلوثها الأطماع والانحرافات .

إنها فطرة اللّه التى فطر الناس عليها ، وهى التى تلتقى مع الإسلام دون وساطة لأنها تعبير حقيقى عن طبيعته و منهجه و مفاهيمه .

و الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – حين يقول : " البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب " فهو يعنى ما توافق مع الفطرة الإنسانية الصافية النقية ويستشعره المسلم فى سلوكه و قوله ، ويرى أنه الصواب بعينه ، ولا يستشعر فيه شيئاً من الشك أو الندم أو الإحساس بالخطأ أو الإثم ..

و عندما يستشعر المسلم أن هنالك شيئاً يقلقه أو يثير اضطرابه الوجدانى أو يبعث على القلق ، فإنه يتوجه من فوره إلى سؤال أهل الذكر ليطمئن و يستريح إلى القول الفصل الذى ينطق به العلماء و الفقهاء ..

بل إن بعض الناس يشعر أن الأمر يقتضى ترك مسألة ما أو الابتعاد عنها مع أن العلماء أفتوه بحلّها و إباحتها ، لأنه بداخله يرى فيها حالة غير طبيعية أو غير طيبة .. و هذا معنى " و إن أفتاك الناس و أفتوك ".

فالفتوى ليست نهاية المطاف مع أصحاب الضمائر الحية و الأفئدة اليقظة والقلوب المتصلة بالحق سبحانه صلة إيمان و إخلاص و يقين .

إن تعبير الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن الإثم بقوله :

" الإثم ما حاك فى النفس ، و تردّد فى الصدر و إن أفتاك الناس وأفتوك " يؤكد على الضمير الإسلامى فى حسم الأمور الغامضة أو المختلطة أو التى لم يدر صاحبها بحلّها و حرمتها ..

الإثم ما حاك فى النفس ، أى مالم ترض عنه النفس البشرية و تشعر أنه ليس حلالاً وليس طيباً ، و تردد فى الصدر ، أى يجد المسلم نفسه موّزعاً بين الرضا والقبول من ناحية وعدم الرضا و عدم القبول من ناحية أخرى .

إن البّر بمعناه الشامل لكل أنواع الخير و المعروف ترتاح إليه النفس وينجذب إليه القلب دون و بساطة و دون فتوى . وما أحوجنا إلى النفس الصافية والقلب الطاهر لإقامة المجتمع المتضامن المتعاون على الخير و المعروف .

و المسلم فى بحثه عن الحق و الحقيقة لا يرضى أن يفارق مواضع الشبهات أو المسائل الشائكة التى توقعه فى دائرة الإثم و المعصية .. و قد يستهين البعض من الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم ، و يقيسون الحياة بمقاييس مادّية تقوم على الربح المادى و الكسب العينى ، و هؤلاء من الذين ظلموا أنفسهم ، و ظلموا دينهم و ظلموا أمتهم و مجتمعهم لأنهم تناسوا أن الله سبحانه يرقب و يرى ، ويحاسب و يجازى ، و أن هناك يوماً سيلتقى فيه البشر جميعاً ، أعمالهم هى جواز سفرهم إلى الجنة أو النار.

نسأل الله سبحانه أن يطهّر قلوبنا لتلقى ربّها وهى صافية نقية ، ابتعدت عن الحرام ، وكل ما فيه شبهة حرام ، و اقتربت من الحلال ، و عملت به وله، و الله ولى التوفيق .

**** ****

أهل الصفة -١

عن عن طلحة البصرى – رضى الله عنه – قال : كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، فإن لم يكن بها عريف نزل الصُفَة .

فقدمت المدينة ولم يكن لى بها عريف . فنزلت الصفة ، وكان يجرى علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كل يوم مُداً من تمر ، و يكسونا الخنف ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بعض صلوات النهار ، فلما انصرف ناداه أهل الصفة يمينا و شمالاً : يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر ، و تخرّمت علينا الخنف !!

فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منبره ، فصعده فحمد الله و أثنى عليه فذكر شدّة ما لقى من قومه ، حتى قال :

" فلقد أتى على و على صاحبى بضع عشرة يوماً ، ومالى و له طعاماً إلا البرير ، فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار ، و عظم طعامهم التمر فواسونا فيه ، فوالله لو أجد لكم الخبز و اللحم لأشبعتكم منه . و لكن عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغدى على أحدكم بجفنة ، و يراح عليه بأخرى .. "

حديث صحيح أخرجه أحمد وآخرون

....

نحن فى هذه القصة النبوية التى يرويها الحديث الشريف ، بصدد قضية مهمّة ، تعنى المسلمين فى كل زمان و مكان ، و تخاطب الوجدان الإسلامى ، فيهتز أمام احتياجات إخوانه من أهل الإسلام و غيرهم ، للإحسان إليهم و مساعدتهم ومدّ يد العون إلى المحتاجين والذين لا يجدون ما ينفقون ، كما تقودنا هذه القصة إلى

المقارنة بين زمن التضامن الإنسانى و التكافل الاجتماعى فى عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وزمن آخر ينسى فيه المسلمون تعاليم الإسلام و قيمه ، فيتقاتلون ويتناحرون ، و تضيع هيبتهم و يقعون فريسة سهلة لأعدائهم و خصومهم .

إن طلحة البصرى – رضى الله عنه – يكشف لنا عن نمط من السلوك الاجتماعى على عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – يحقق للغرباء عن المدينة ما يحتاجونه من سكن و إقامة بوصفهم ضيوفاً جاء للعلم و التعرف على الإسلام من منبعه الأصلى وهو الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى يقيم فى المدينة المنورة . وإذا تأملنا اسم راوى الحديث " **طلحة البصرى**" سنجده منسوبا إلى " البصرة" وهى مدينة بعيدة عن المدينة تقع فى العراق ، و الرجل – أى طلحة البصرى – قد جاء إلى المدينة ، ولم يكن له بها " عريف" أى مسئول عن أهل البصرة و نواحيها يستضيفهم و يقوم على أمورهم ومعاشهم حتى تنتهى فترة إقامتهم و ينجزوا مهمتهم ، فتذهب إلى ركن مظلّل فى المسجد النبوى أطلق عليه ركن أهل الصفة حيث يجتمع المهاجرون الفقراء ، والبسطاء الذين لا يملكون سكنا ولا طعاماً .

وكان المسلمون يطلقون عليهم ضيوف الإسلام أو أضياف الإسلام ، ويخصص لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يتاح له من طعام و كساء ..

ولا شك أن هذا المنهج يمثل صورة للتكافل الإجتماعى – وضع أساسها الرسول – صلى الله عليه وسلم – و سار عليه المسلمون من بعده ، و طبقوه بصور مختلفة على مستوى الوحدات السياسية الكبرى أو القرى و التجمعات السكنية الصغيرة فى شتى أرجاء الأمة الإسلامية .

وكان الأزهر مثلاً إلى عهد قريب يخصص " أروقة" فى مسجده الكبير لكل القادمين من شتى أرجاء المناطق الإسلامية ، و يصرف لهم " **الجراية** " أو الطعام حيث يظلون مقيمين إلى أن تنتهى مدة تحصيلهم للعلم على شيوخ

الأزهر، و يرجعون إلى بلادهم لينهضوا بمهامهم فى مجال التعليم أو الوعظ أو الخطابة أو الإمامة .

و هناك من يعد " الصفة " بداية لما يعرف بالصوفية . حيث تعنى الزهد فى زخرف الدنيا و متاعها . و العيش عيشة التقشف و الكفاف ، بعيداً عن صراع الحياة وطغيانها ، و التفرغ للعبادة و الطاعة .

و أيا كان الأمر ، فإن طلحة البصرى لم يكن له " عريف" بالمدينة ، و نزل على أهل " الصفة " ، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخصص لهم كل يوم مداً من تمر يتعيشون به أو يكون طعامهم اليومى ، و بالإضافة إلى ذلك يجعل لهم كساءً من الخنف وهو نوع ردىء بل أردأ أنواع الكتان الغليظ الخشن .

وكما نرى فالطعام و الكساء كانا متواضعين للغاية ، و يحفظان الحياة بصعوبة وهو ما دعا أهل الصفة إلى الشكوى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما يعانونه من سوء الطعام والكساء جميعاً . و قد اغتنموا فرصة انتهائه – صلى الله عليه وسلم من الصلاة ذات يوم ، فقالوا له :" يا رسول الله أحرق بطوننا التمر ، و خرقت علينا الخنف " أى إنهم من أكل طعام واحد فقد احترقت بطونهم ، و تمزقت ملابسهم الكتانية الرديئة من طول استعمالها . وكان رد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن صعد المنبر ، و حمدا لله و أثنى عليه ، و ذكر لهم من أجل أن يواسيهم و يصبّرهم شديد ما لقيه على يد قومه فى مكه قبل الهجرة ، وكان إيذاءً وحصاراً و ملاحقة .. وهو الأمر الذى استمر فى أثناء هجرته وشاركه المعاناة صاحبه أبو بكر رضى الله عنه .

**** ****

أهل الصفة -٢

شكا أهل الصفة من سوء الطعام و تخرّق الثياب ، فصعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – المنبر و أخذ يواسيهم و يتمنى لو كان لديه خبز و لحم ليشبعهم منه، ورجا لهم زمناً أفضل تقدم لهم فيه جفنة طعام بعد أخرى .

" **فقالوا** : يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟

قال : " لا ، بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون ، و أنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض ".

....

لا ريب أن موقف أهل الصفة مما يعانونه من سوء الطعام أو تخرّق الثياب هو أمر طبيعي تفرضه الطبيعة الإنسانية التي لا تصبر على طعام واحد ، ولا ترضى بلون واحد من المأكولات ، و هؤلاء الفقراء المساكين الذين يعيشون على التمر، ويرتدون أسوأ أنواع القماش وهو الخنف أو الكتان الرديء جداً ، مرّت بهم أيام طويلة ، ولم تتغير حالهم فكانت شكواهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علّهم يجدون عنده حلاً يغيّر من هذا الواقع البائس .

و تقبل الرسول – صلى الله عليه وسلم – شكواهم بروح طيبّة حانية، لم يتأفف ولم يغضب و لم يقل لهم : أنتم ترون الواقع و تعرفون ما فيه فلا تتكلموا ولا تثوروا .. ولكنه صلى الله عليه وسلم – أدرك بحسّه الإنساني و شعوره النبّوي ، أن أهل الصفة مظلومون و يجب أن يقف إلى جانبهم و يصبرّهم و يواسيهم .. وهو ما جعله يميل إلى المنبر، أي يتجه إليه ، ثم يصعد ، و يبدأ في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهل له .

كان من الطبيعي أن يذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما عاناه والمسلمون الأوائل من شدّة و معاناة على يد مشركي مكة الذين طاردوهم

وحاصروهم و عذبوهم ، وقد كان هنالك حصار مشهور فى شِعْب أبى طالب ، حيث لم يجد المسلمون الطعام فاضطروا إلى أكل العشب و أوراق الشجر كى تستمر الحياة.. إلى أن ذن الله بالفرج ، و تم فك الحصار..

و يشير الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى حدث قريب يعرفه أهل الصفة وهو هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع صاحبه أبى بكر من مكة إلى المدينة ، وقضى فى رحلة الهجرة أياماً صعبة زادت على العشرة أيام ، لم يأكل فيها و صاحبه طعاماً إلا البرير ، و هو ثمر الأراك ، أى إن طعام النبى – صلى الله عليه وسلم – و صاحبه كان يشبه طعام أهل الصفة الذى يشتكون منه ، و يقولون إنه أحرق بطونهم .

لقد صبر النبى – صلى الله عليه وسلم – و صاحبه على هذا الطعام ، حتى وصلا إلى المدينة ، وجاء الأنصار لمواساتهما ، فقدموا لهما التمر ، وهو غالب طعامهم الذى يقتاتون عليه . و كان لا مفر من القبول بهذا الطعام ، لأنه الواقع المتاح ، مع الصبر الجميل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وما ذكره الرسول – صلى الله عليه وسلم – لترضية أهل الصفة ، واستعرض فيه مالاقاه من قومه ، وما عاناه فى الهجرة إلى المدينة ، كان ضرورة ليعلن لهم عن أمنيته بل رجائه أن يدركوا زمانا ، و يلحقوا عصراً ، أفضل وأسعد .

إنه يقسم بالله لو أنه يملك الخبز واللحم لأشبعهم منه ، أى يقدمه لهم ليأكلوا حتى تمتلئ بطونهم و يكفوا عن تناول الطعام ، ولكنه يرجو أن يأتى الزمان الذى يتحقق لهم فيه ذلك ، فتقدم لهم الجفنة بعد الجفنة ، و الجفنة هى الإناء الكبير الواسع الذى يوضع فيه الثريد و فوقه اللحم ، وهو الطعام المفضل عند أهل الجزيرة العربية .

وبلا شك ، فقد نزل كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أهل الصفة برداً و سلاماً ، و أراح نفوسهم و أفئدتهم ، و هيأهم فرصة التساؤل عن الزمن الحاضر الذى يعيشونه ، و الزمن الذى سيأتى من بعدهم :

" يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟ " يقصدون المستقبل !

إنهم من شدّة المعاناة يتطلعون إلى يوم خير من يوم المعاناة الذين يعيشون فيه ..وكانت إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنفى لسبب واضح يذكره " لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، و أنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض ! " .

خيرية اليوم الذى يعيشونه – مع الفقر و الجوع – ترجع إلى الحب و التراحم و المودة التى تسوء بينهم ، و تحكم علاقاتهم و سلوكهم ، و تجعلهم يتكافلون ويتراحمون .

أما اليوم الآخر ، الذى سيأتى فى المستقبل بعد يومهم هذا ، فسببه الأنانية و الأثرة و حب المادة و انتفاء التكافل و التراحم ، وهو ما يؤدى إلى الكراهية و البغضاء والعدواة فيضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، أى يقتتلون فيما بينهم، مما يضيع هيبتهم ويغرى بهم أعداءهم ، و يجعلهم قصعة الأمم . إنهم يؤمئذ تخلوا عن المنهج الإسلامى الذى يقدم الروح على المادة ، و القيمة على الثروة ، والمعنى على الشكل ، و الآخرة على الدنيا سعياً ، ليعيش المسلم فى أمن و سلام ورضاً. أما إذا تعلق المسلم بزخرف الدنيا و متاعها فهو بلا ريب يحيا فى اضطراب و قلق و عدم اطمئنان ، و يسلم نفسه للغواية مع الشيطان التى تنتهى بالدم والصراع و الدمار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

**** ****

دفاع الملائكة -١

عن أبى هريرة رضى الله عنه – قال :

إن رجلاً شتم أبا بكر ، ورسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – جالس ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم – يعجب و يبتسم ، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم – وقام ، فلحقه أبو بكر ، فقال :

يا رسول الله ، كان يشتمنى ، و أنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت و قمت !! قال :" إنه كان معك ملك يردّ عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان "..

حديث صحيح أخرجه أحمد و الطبرانى

....

فى هذه القصة النبوية التى يحملها الحديث الشريف ؛ منهج إسلامى يبين طبيعة التعامل الإنسانى و السلوك الإجتماعى الذى ينبغى أن يسود بين المسلم و المسلم ، بل بين المسلم وغيره ، سعياً لبناء مجتمع إسلامى متماسك و قوى ، يرقى أفراده فى علاقاتهم اليومية و الإنسانية إلى مستوى عال من النضج و الاحترام و التسامح والرفق .

إن الخلق الكريم هو أساس العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامى ، بما فيه من غير المسلمين ، وكان الوصف الأسمى الذى وُصف به الرسول – صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، هو قوله تعالى : "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ "(القلم:٤)

فالحق سبحانه يصف نبيه صلى الله عليه وسلم بصاحب الخلق العظيم وهو ما يعنى أن قيمة الخلق العظيم فى السلوك الإسلامى ، تسبق أية قيمة أخرى ، بل هى جماع كل القيم ..

و إذا كانت صفة الخلق العظيم للرسول – صلى الله عليه وسلم – هى تقرير الواقع الحقيقى الذى كان عليه نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – فهناك إشارات قرآنية إرشادية لتطبيق هذا الخلق العظيم ، منها قوله تعالى :

"خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ "(الأعراف ١٩٩)

وهـي أمـر مباشـر بالعفو والمعروف و الإعراض و البعد و التجاوز عن الحمقى و أصحاب الأخلاق غير الكريمة ، وهو ما يقود إلى التذكير بموقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – في القصة النبوية التي بين أيدينا كما سنرى ، وهناك إشارة في توجيه عام لجمهور المسلمين حين يصطدمون بهؤلاء الحمقى أو سريعي الغضب أو سيئي الخلق حيث يصف الحق سبحانه عبادة المؤمنين بأنهم :

"وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا "(الفرقان :٦٣)

و المسالمة خلّة أساسـية من خلال المسلم الحق ، فهو ليس شتاماً ولا لعّاناً ولا فاحشاً ولا بذيئاً ، و الحديث الشريف صحيح في ذلك ، حيث نقرأ قوله – صلى الله عليه وسلم – " المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده ".

و نقرأ له حديثا آخر يتضمن هذا المعنى بصورة أخرى : "ليس المسلم بطعّان ولا فاحش ولا بذيء " .

وهو ما يقودنا إلى فهم القصة التي بين أيدينا ، وفهم السبب الذي دفع الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى ترك المجلس الذي كان يجلس فيه مع أبي بكر، وعدم رضاه عما رآه و سمعه .

لقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجلس مع أبي بكر رضي الله عنه و إذا برجل لم يحدد الحديث الشريف هويته ، من هو ؟ أو من يكون ؟ ولكنه بالتأكيد من المجتمع الإسلامي وقد جاء إلى المجلس ، ووجه الشتائم إلى أبي بكر رضي الله عنه .

و نحن نعلم من هو أبو بكر.. أول من أسلم من الرجال ، و الصدّيق الذي آمن بالرسول – صلى الله عليه وسلم – و صدقه حين كذبه قومه ، وهو الذي كان ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . و الصديق هو صاحب المواقف العديدة في نصرة الإسلام و دعم المسلمين .. أبو بكر يثير غضب

الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين يرد بعض الشتائم على من شتمه ، فيترك المجلس و يغادره ..

ولا يحتجّن أحد فى هذا المجال بأن الله يأمرنا فى قوله تعالى :

"..فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ...." (البقرة : ١٩٤)

بردّ العدوان ، وكيل الصاع صاعين لمن شتمنا أو سبّنا أو قذفنا . فهذا التوجيه خاص بالمواجهة مع الأعداء الذين يأتون بجيوشهم أو قواتهم المسلحة للإعتداء علينا أو غزونا أو إذلالنا . أما أخوة الإسلام و أفراد المجتمع الإسلامى فينبغى أن يسود الرقىّ الخلقى و التسامح الإنسانى فيما بينهم ...

و هذا ما فسّره الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأبى بكر – رضى الله عنه – حين تدارك الموقف و لحق بحبيبه – صلى الله عليه وسلم – يستكشف سبب مغادرته للمجلس ، وإحساسه بغضبه مما رأى وسمع .

فقد قال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – " إنه كان معك ملك يرّد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان . فلم أكن لأقعد مع الشيطان ".

إذاً هذا هو التفسير الأوّلى للمغادرة و الغضب . حين كان أبو بكر – رضى الله عنه يتلقى الشتائم من ذلك الوافد على المجلس ، فإن ملكا من الملائكة الكرام كان مع أبى بكر يرّد عنه ، سواءً بإحصاء سيئات الشتّام أو بتسجيل الحسنات للمشتوم الذى هو أبو بكر و عندما قام أبو بكر يردّ بعض الشتائم ، انتهى دور الملك ، و بدأ دور الشيطان ، أو وقوع الشيطان و حلول فى المكان بين الشاتم و المشتوم ليشعل العداوة بينهما ، وهو ما يرفضه الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا يرضاه لنفسه – وهو ما عبر عنه بقوله ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان " . ونلتقى مع تفسير أوسع وأرحب للموضوع فيما يلى .

**** ****

دفاع الملائكة -٢

غضب الرسول – صلى الله عليه وسلم – و ترك مجلسه مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه لأنه ردّ بعض الشتائم على شاتمه . و أعلن عن غضبه مبينا لأبى بكر أن ملكاً كان يرّد عنه ، ولما ردّ هو وقع الشيطان ، وما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليقعد مع الشيطان ..

ثم فسر المسألة تفسيراً أوسع و أرحب حين قال صلى الله عليه وسلم :" يا أبا بكر ، ثلاث كلهم حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها لله – عزوجل إلا أعزّ الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية ؛ يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلاّ زاده الله بها قلّة "

صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم

....

فى هذه القصة النبوية الشريفة ، يلفت نظرنا موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حالين .

الحالة الأولى : هى تعجّبه و ابتسامه ، عندما جاء الرجل الذى شتم أبا بكر الصديق – رضى الله عنه .

الحالة الأخرى : هى غضبه و مغادرته للمجلس .

فلماذا ابتسم أولا ، و لماذا غضب ثانيا ؟

الإجابة بسيطة للغاية ، وهى أن ابتسام الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان والله أعلم نوعاً من تهدئة الشخص الذى جاء يشتم أبا بكر ، و إشعاره بتجاوزه مما يحتم عليه أن يتراجع ويكفّ عن شتائمه وربما يسارع بالاعتذار لأبى بكر وترضيته ، ثم إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يبتسم لدفاع الملك عن أبى بكر ، وردّه على الشاتم نيابة عنه .

أما الغضب ، فكان نيجة لأن أبا بكر أخذ يثأر لنفسه ، ويرّد بعض الشتائم مما جعل الملك يتوقف عن الدفاع عنه ، ثم يقع الشيطان ، و عندما يقع

الشيطان بمعنى يحضر فى المجلس فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يجلس فى مجلس فيه شيطان لا يريد الخير بالشاتم أو المشتوم وهو ما يؤدى إلى شرّ مستطير بين الطرفين .

ولا ريب أن نهوض الرسول – صلى الله عليه وسلم – من المجلس كان تعبيراً عمليا عن رفض الإسلام لنهج الإساءة المتبادل بين المسلمين . فالمسلم مطلوب منه ألا يرّد على أخيه المسلم الذى يشتمه فالملائكة تتولى الدفاع عنه ، ثم إن الصبر على الأذى له ثوابه وله تأثيره أيضاً على من قام بالأذى ، إذ يصبح فى وضع الظالم الذى يرفضه المجتمع ويتحاشاه حتى يكف عن أذاه و يستقيم على الجادة ..

و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يوضح ذلك لأبى بكر؛ رضى الله عنه ، فى إطار أوسع و أرحب حين يوضح لأبى بكر ثلاثة أمور مهمة فى سلوك المسلم ..

الأمر الأول : هو أن التسامح مع المعتدى بالإساءة و الشتم و الأذى ، ابتغاء وجه الله خير و أبقى ، لأن الله يعزّ المتسامح المظلوم ، و ينصره ، وهو ما يعنيه قوله – صلى الله عليه وسلم – " ما من عبد ظلم بمظلمة ، فيغضى عنها لله – عزّوجل – إلاّ أعز الله بها ونصره ".

و مفهوم هنا أن الظلم هنا هو ما يتعلق بالعلاقات الشخصية ، بين فرد وآخر فالشخص الذى يظلم شخصاً آخر بالإساءة إليه ، فيغضى عنه الآخر – أى يعفو ويتسامح تقرّبا إلى الله ، فإن الله سينصره و سيعزّه ، و يكافئه على عفوه وتسامحه بصورة و أخرى .

أما الظلم العام الذى يتعرض له الناس أو يستوجب قصاصاً من الظالمين ، فأمر آخر يحتم التصدى لردّه و ليستقيم أمر المجتمع و تصلح الحياة ، مع تقديم العفو وتفضيله على القصاص يقول تعالى :

"وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ "(الشورى :٤٣)

وهناك دعوة عامة إلى جميع أفراد المجتمع الإسلامى تدعوهم إلى المسارعة إلى الخيرات و الجنة بالإنفاق فى سبيل الله و كظم الغيظ و العفو عن

الناس . "وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ" (آل عمران ١٣٣- ١٣٤)

الأمر الثاني : يتمثل في العطاء لوجه الله ، وهو أمر يُقَرِّبُ ما بين الناس ، و يوطّد علاقاتهم ، و عبّر عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله :

"وما فتح رجل باب عطية ، يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة" . و نحن نعلم أن الحسنة بعشر أمثالها . و تأمل قوله – صلى الله عليه وسلم – فتح باب عطية ، كأن العطية بناء كبير له باب تفتحه النفس الخيرة ، الميّالة إلى الجود والكرم، فتربط ما بينها و بين الناس بصلة قوية وآصرة متينة ، و كأن العطيّة ماء يطفئ نيران الإساءة و الأذى والتحرش بالآخرين .

أما الأمر الثالث و الأخير : فيأتي كأنه عكس الأمر السابق ، وهو "السؤال" أو الطلب من الغير دون ضرورة أو حاجة ، فهو وبال على صاحبه حاضراً و مستقبلاً ، فضلاً عن كونه صفة تتنافى مع العفّة و الترفع و عزة النفس ، و عبّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك بقوله : " وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " **فالغنى ليس بالمسألة** ، و إنما بالقناعة و غنى النفس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى **أولئك الذين يترفعون عن المسألة** :

".....يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ" (البقرة : ٢٧٣)

أما المسألة لغير ضرورة ، فهي لا تورث غنى بل تورث فقراً و بؤسا.

إن مقابلة الشتم بالشتم ليست من أخلاق الإسلام ، وقد قدم لنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – درساً عملياً من خلال ما حدث لأبي بكر رضي الله عنه ، و أوضح لنا كيف تكون العلاقة بين الناس قائمة على المودّة و التسامح و التعاطف و العطاء و التعفف .

قصة غزوة بدر و الأسرى -١-

عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حدثه فقال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المشركين وهم ألف و أصحابه ثلاثمائة و تسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبى الله – صلى الله عليه وسلم – القبلة ثم مدّ يده فجعل يهتف بربه :

" اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة مّن أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ".

فما زال يهتف بربه مادّاً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عزوجل :

"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ " (الأنفال :٩)

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم و آخرون)

.....

تمثل غزوة بدر فى التاريخ الإسلامى لحظة فارقة بين الاستضعاف والقوة بين الذلة و العزة ، بين الوجود و الهشّ المحاصر ، و الوجود الراسخ الحرّ ...غزوة بدر بداية المرحلة التى أخذ فيها الإسلام يفرض فيها ذاته و كيانه و حاضره و مستقبله على الخصوم و الأعداء و المنافقين و المتربّصين ... إذ إنها حققت لأول مرة انتصاراً عسكريا ينجزه المسلمون فى الميدان ، مع اتساع الفارق بين قوتهم و قوة أعدائهم .. فقد كانوا يمثلون قوة صغيرة ضعيفة بالقياس إلى قوة الأعداء التى تملك تفوقاً كبيراً فى العدد و العدة أو الأفراد و السلاح ، وكانت نتيجة المعركة خسارة فادحة للأعداء

؛ إذ فقدوا ما يقرب من سبعين قتيلاً بينهم عدد لا بأس به من قياداتهم المؤثرة ؛ فى مقدمتهم أبو جهل ، العدو اللدود للإسلام . كما فقدوا سبعين مقاتلاً آخرين ، وقعوا فى أسر المسلمين ، ولم يفرج عنهم إلا بعد ظروف معينة عايشوا فيها قسوة الهزيمة ، ورأوا انتصار الإسلام ، وتفاعلوا مع المجتمع المسلم سلباً و إيجاباً من خلال القيم و السلوكيات التى تحرّك بها المسلمون فى مرحلة القتال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

لقد تناول القرآن الكريم قصة غزوة بدر فى سورة الأنفال ، و أشار إليها فى بعض السور الأخرى ، كما وردت أحاديث نبوية شريفة تتحدث عنها و تسرد وقائعها وأحداثها ، وفى هذا الحديث الشريف ، يقوم عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بسرد أحداث الغزوة من وجهة نظرة على لسان عبد الله بن عباس، ولكن المحور الأساسى فى رواية عمر هو الإشارة إلى موضوع الأسرى المشركين الذين وقعوا فى قبضة المسلمين وهو موضوع اقتضى مشاورة بين النبى – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه ، و نزل فيه الوحى ليعلّم المسلمين كيفية التصرف فى مثل هذا الموضوع الخاص الذى تكتنفه ملابسات خاصة .

لقد وقعت غزوة بدر عند بئر على مشارف المدينة المنورة ، كان صاحبها يسمّى بدراً ، وصار هذا الاسم علماً على هذه الغزوة التى جرت فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان يوم جمعة .

كان عدد المشركين المقاتلين ألف رجل ، فيهم كثير من الفرسان ، مسلحين بأفضل الأسلحة ، ومعهم كثير من المؤن و الاستعدادات . أما المسلمون فكانوا ثلاثمائة و تسعة عشر رجلاً ، وكان تسليحهم محدوداً ، و معظمهم كان راجلاً ، أى يسير على قدميه بلا خيل ولا ركاب ..

" اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آت ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ".

الدعاء وسيلة من وسائل طلب النصرة من الله سبحانه جل و علا ، المسلم يلجأ إلى ربه لينصره و يعزه فى ظل تفوق العدو و هيمنته القتالية ، و النبى – صلى الله عليه وسلم – يقدم القدوة للمسلمين كى يتضرعوا إلى الله و يطلبوا منه العون و المساندة والثبات فى مواجهة عدوّهم .. إن الدعاء صلاة ، والعبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو يصلى و يسجد ، يستجيب له ، و يمّن عليه بأفضاله و نعمائه . وقد دعا النبى – صلى الله عليه وسلم ربه ، لينجز له وعده بالنصر أو الغنيمة . وكان تضرع النبى – صلى الله عليه وسلم صادقا و مخلصا و منطقيا :

اللهم إن تهلك هذه العصابة ، أى هذه الجماعة المسلمة ، أو جماعة المسلمين أو أهل الإسلام ، لا تعبد فى الأرض ، أى إن الرسول – صلى الله عليه وسلم يطلب النصر من ربه ، حتى تستمر عبادته ، و يستمر ذكره فى الأرض ، من خلال المؤمنين به المطيعين له و إلا فإن هزيمتهم تعنى هزيمة الإسلام و القضاء عليه .. وقد استجاب الله للنبى – صلى الله عليه وسلم – وأنجز وعده .

**** ****

قصة غزوة بدر و الأسرى -٢-

قال ابن عباس : رضى الله عنهما : بينما رجل من المسلمين يومئذ (أى يوم بدر) يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم .

فنظر إلى المشرك أمامه فخّر مستلقياً ، فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه ، و شق وجهه كضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم فقال :

" صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ".

فقتلوا يومئذ سبعين و أسروا سبعين ".

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ ".

فقال أبو بكر – رضى الله عنه :

يا نبى الله هم بنو العم و العشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " ما ترى يا ابن الخطاب ؟"

فقال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : لا و الله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضربَ أعناقهم ، فتُمكّن عليا من عقيل فيضرب عنقه و تمكّنى من فلان – نسيبا لعمر – فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وصناديدها فهوىَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت ....."

....

obeikandl.com

حين رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - الفارق الشاسع بين قوة المسلمين وقوة المشركين . و تفوق الآخرين ، ابتهل إلى ربه مناشداً و هاتفاً حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، أى كتفيه ، وكان يدعو ربه لينجز وعده للمسلمين . قام أبو بكر رضى الله عنه وأخذ رداءه – صلى الله عليه وسلم – و ألقاه على كتفيه ، ووقف من ورائه قائلاً : يا نبى الله ، كذاك مناشدتك ربك ، أى كفاك مطالبة ربك ، فقد وعدك بإحدى الطائفتين : العير أى القافلة التى تسوقها قريش بزعامة أبى سفيان ، أو النفير أى مقاتلة جيش المشركين و الانتصار عليه ، و سينجز الله وعده الذى وعدك به .. و قد تحقق هذا فعلاً بفضل الله وكان النصر على الجيش الذى جاء بعد الإمداد بالملائكة .

قال تعالى : "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "(الأنفال :٩-١٠)

و لاشك أن الدعاء الخالص لوجه الله سبحانه يجد القبول و الإستجابة وهو ما رأيناه فى غزوة بدر ، حيث استجاب الله لدعاء نبيه – صلى الله عليه وسلم وأنزل الملائكة يقاتلون مع المسلمين الذين كانوا أقلية ضعيفة . ولكنها أقليّة مؤمنة أخذت بالأسباب ، و أعدت العدة التى تقدر عليها . و قاتلت بصبر و استماتة و طلباً للشهادة وهو ما جعل نتيجة المعركة على غير ما توقع الناس ، إذ كان المتوقع وفق الحسابات المرئية هو انتصار قريش المشركة ، الأكثر عدداً و عدّة ، ولكن النتيجة أن المسلمين الأقل عدداً و عدة هم الذين انتصروا ، وكان انتصارهم ساحقا وداوياً إذا أسروا سبعين مقاتلاً من قريش ، و قتلوا سبعين آخرين منهم .

لقد تمثلت نصرة الله للمسلمين فى إمدادهم بالملائكة ، وفى قصة المشرك الذى خرّ مستلقياً أمام الفارس ما يشير إلى هذا الإمداد ، فقد سمع رجل من

المسلمين وهو يشتد فى أثر رجل من المشركين ضربة سوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، وحيزوم هو اسم فرس الملك الذى كان يطلب منه الإقدام ، أى الكرّ على الأعداء . وسوف نجد أن المشرك الذى استلقى على الأرض أو انبطح عليها قد حطم أنفه ، أى جرح أنفه أو صارت عليه علامة جرح . و شق وجهه كأنه أثر من ضربة السوط ، وحين يبلغ أنصارى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فيقول : " صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة " ...

أى إن ما جرى للمشرك . هو نيجة ما فعله الملك الذى أنزله الله من السماء الثالثة مع آخرين لمقاتلة المشركين و دعم المسلمين فى محنتهم التى يواجهون فيها قوة أكبر منهم و أعظم تسليحاً و إعداداً .

"لقد كانت نتيجة المعركة مذهلة . نصر و أسر . و يبدو أن المسلمين آنئذ لم يتوقعوا أن ينشأ لديهم وضع جديد غير مسبوق ، وهو أسر سبعين مشركا من مقاتلى قريش ماذا يفعلون بهم ؟ أو كيف يتصرفون معهم ؟

وهنا نرى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلجأ إلى مشاورة المسلمين، فليس لديه تشريع يهدى فى هذه المسألة . وكان أمر الأسرى فى هذا الزمان غير خاضع لقانون أو عرف . كان التصرف فى الأسرى خاضعاً لما يراه المنتصرون ، وهو ما فعلته الأمم المتحاربة و أهمها يومئذ الفرس و الروم . لم تكن هناك قاعدة ثابتة أو نظام متفق عليه

كان هناك من يقتل الأسرى ، وكأن هناك من يستعبدهم و حوّلهم إلى عبيد يباعون ويشترون ، وكان هناك من يقايض بهم مع قومهم المهزومين ، أو يجعل لهم ثمناً يفتديهم أو يدفعه ذووهم ؛ وقادتهم من قومهم المهزومين ..لذا كانت المشاورة بعد غزوة بدر هى الطريق الأمثل لمواجهة أمر الأسرى المشركين .

**** ****

قصة غزوة بدر و الأسرى -٣-

بعد أن استشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – صاحبيه أبا بكر و عمر في أمر الأسرى الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر، يقول عمر رضى الله عنه :

" فلما جئت من الغد ، جئت فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أبو بكر قاعدين يبكيان .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت و صاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، و إن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟!

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أو فى من هذه الشجرة ".

شجرة قريبة من نبى الله – صلى الله عليه وسلم – و أنزل الله عزوجل :

"مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ...." (الأنفال :٦٧-٦٩)

فأحل الله الغنيمة .

....

كان وجود سبعين أسيراً مشركاً فى قبضة المسلمين ، بعد غزوة بدر ، مسألة مهمّة تحتاج إلى تصرف يعالجها ، فهؤلاء الأسرى كانوا يقاتلون المسلمين ، وجاءوا إلى بدر معتدين ، وبعضهم من قادة الشرك و العدوان ، و لذا طرح الرسول – صلى الله عليه وسلم أمرهم على المسلمين ، فالتصرف معهم ، لم يرد فيه وحى ، أو أمر من السماء .

وكان أبو بكر و عمر أبرز أصحاب الرأى و المشورة فى المجتمع الإسلامى آنئذ . و استشارهما الرسول – صلى الله عليه وسلم . فرأى أبو بكر – رضى الله عنه – أن تؤخذ منهم فدية تكون قوة للمسلمين على الكفار ، وكانت أسباب رأيه تتلخص فى كونهم أى الأسرى – أبناء العم و العشيرة ، أى أقارب للمسلمين ، و أن الفداء يمكن أن يكون طريقاً لهدايتهم إلى الإسلام ، فضلاً عن كون الفدية وسيلة من وسائل قوة المسلمين .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه – فقد كان رأيه مخالفا لرأى الصديق أبى بكر و كان يرى أنه لابد من قتلهم ، و أن يقوم الصحابة بقتل الأسرى من رؤس الكفر ولو كانوا من أقاربهم ، فيقتل عليّ عقيلاً ، ويقتل هو – أى عمر – صهراً له .. وهكذا ، وحجته فى ذلك أن هؤلاء أئمة الكفر و صناديدها ، أى أشراف الكفار ، وهم كبار الكفرة و أشرارهم .

لم يأخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – برأى عمر ، ولكنه أخذ برأى أبى بكر " فهَوِىَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما قاله أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ...".

ولا ريب أن علاقة النسب والقربى ، والأمل فى الهداية ، كانت من وراء موافقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على رأى أبى بكر ، ولكن الوحى جاء موافقاً لرأى عمر وهو ما جعل النبى – صلى الله عليه وسلم – و أبا بكر – رضى الله عنه – يبكيان ، مما أثار تساؤل عمر عن سبب البكاء ..

لقد اتخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – الموقف السليم ، وهو الشورى أو المشاورة أو طلب الرأى من أصحاب ، فيما عرض له من أمر الأسرى ، إذ لو كانت هناك قاعدة شرعية معروفة ، ما احتاج إلى المشاورة ، ولطبق هذه القاعدة تلقائيا ..

و يبدو – و الله أعلم – أن الحق سبحانه أراد أن يعلم المسلمين درساً فى كيفية التصّرف عندما لا يوجد نص ، أو قاعدة شرعية ، إذ يتوجب عليهم أن يتشاوروا و يطرحوا الآراء المختلفة بأسانيدها و أسبابها و مسّوغاتها ، و عليهم

بعدئذ أن يرجحوا ما يرونه موافقاً لصلحة المسلمين ، وقد وردت بعض الآيات التى تؤكد على الشورى مثل قوله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم :

"....وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ...."(آل عمران ١٥٩)

وحين يتحدث عن صفات المؤمنين ، عدّ الشورى واحدة من صفاتهم قال تعالى :"...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ....." (الشورى ٣٨)

وهناك أحاديث و مأثورات تتحدث عن قيمة الشورى و أهميتها فى حياة المسلمين

بيد أن المسألة بالنسبة للأسرى فى غزوة بدر ، كانت أكبر من ذلك إذ إن القوم حين اعتدوا على المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وجاءوا لمحاربتهم و مقاتلتهم عند بدر كانوا يقصدون إلى إفنائهم قصداً ، و كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام قضاء مبرماً لولا نصر الله ، و إمداده المسلمين بالملائكة . و نزلت الآيات الكريمة توضح ذلك : "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "

(الأنفال ٦٧- ٦٩)

لقد بكى النبى – صلى الله عليه وسلم و أبو بكر رضى الله عنه ، خوفاً من عذاب الله ، وعرف أن قبول الفدية فى هذه الحال ، و المسلمون لم يتمكنوا فى الأرض بعد – هو إغراء للكافرين بالاستهانة بهم و معاودة الكرة عليهم . و كان الواجب إثقالهم بالجراح حتى لا يستطيعوا قتالاً فى الأرض ..ولكن الحق سبحانه يقدر للمجتهدين جهدهم و يعفو عن الخطأ الذى وقعوا فيه ، و يحلّل لهم الغنائم ، و يدعوهم إلى التقوى و التوبة فهو الغفور الرحيم .

لقد كانت غزوة بدر فى أسبابها و سياقها و نتائجها ، درساً مستمراً ينبغى على المسلمين فى كل زمان و مكان استيعابه و الاستفادة منه .. فهو درس عظيم بكل المقاييس .

قصة إسلام صحابي جليل (١)

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : بعثتْ بنو سعد ، ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقدم عليه ، و أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس فى أصحابه ، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " **أنا ابن عبد المطلب** ".

قال : أمحمّد ؟ قال : " نعم ".

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك و مغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .

قال : " لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك ".

قال : أنشدك الله إلهك و إله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك رسولاً ؟

قال : " اللهم نعم " ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحدّه ، ولا نشرك به شيئاً ، و أن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : " اللهم نعم " ..

حديث صحيح أخرجه أحمد و أبو داود و آخرون

....

تمثّل قصص إسلام الصحابة عموماً نموذجاً للبحث عن الحقيقة والسعى إلى اكتشافها وفقا لمعايير العقل و الإخلاص و التدبر ، ومن ورائها جميعاً توفيق الله تعالى و هدايته ، و بالإضافة إلى ذلك ، فهى تقدم دليلاً عمليا على عناية الإسلام بالعقل و التفكير ، فقد جعلهما مدخلاً إلى العقيدة و الإيمان ، وهو ما يرّد

على الذين يسيئون إلى الإسلام و ينفون عن شريعته احترام العقل و التفكير ، وما أكثر الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن الكريم تحضّ على استخدام العقل و التفكير و التدبر و التأمل وفى الوقت ذاته تزرى بالتقليد و المقلدين . و الذين يتبعون غيرهم دون تفكر أو تعقل والصحابى الجليل فى هذه القصة " ضمام بن ثعلبة " من بنى سعد واحد من الذين دخلوا إلى ساحة الإسلام من خلال العقل والتفكير. أى أصبح مسلماً بعد اقتناع عقلى وفكرى بصدق الرسالة و الرسول .

إن القصة النبوية الشريفة تصف لنا ضماماً وصفاً خارجيّاً مباشراً ، كما تصفه لنا من الداخل وصفا ضمنيا عبر الحوار.

فهو من الخارج رجل جلد ، أى قوى البنية شديد البأس ، وهو أشعر ، أى غزير الشعر الذى يغطى أنحاء جسده ، و خاصة الأطراف و هذا ما جعله يعقص شعره أى يضفره فى ضفيرتين أو غديرتين ، و هذه طبيعة الناس فى البادية فى ذلك الزمان مما يدل على القوة و الخشونة عموما لمواجهة قسوة الصحراء أو البيئة التى تتطلب ذلك النوع من الرجال الذى يقدر على التكيف معها .

و سوف نرى من الحوار أن هناك طبيعة خشنة قوية ، تتلبس ذلك الرجل القادم من بنى سعد ليكتشف من هو محمد ؟ وما هو الدين الجديد الذى جاء به ؟ وهل هو حقيقى أم لا ؟

ولا شك أن الرجل وقد بعثه بنو سعد ، فقد زوّدوه بطرف من تاريخ محمد و نسبه نلحظه فى سؤاله الخشن : أيكم ابن عبد المطلب ؟

وعبد المطلب هو جدّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكان مشهوراً فى الجاهلية وارتبط اسمه بحادث أبرهة الأشرم الذى جاء مكة بأفياله غازياً يريد أن يهدم الكعبة وقد تصدى له عبد المطلب طالباً منه أن يترك ممتلكاته أما البيت فله رب يحميه ، وقد ردّ الله أبرهة على عقبيه بعد أن أرسل عليه و على قومه طيراً

أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . إذاً عبد المطلب له شهرة داوية وله صيت ذائع ولذا رأينا ضمام بن ثعلبة ، لم يسّم محمداً باسم أبيه عبد الله ، ولكنه نسبه إلى جدّه عبد المطلب الذى تعرف الجزيرة العربية سيرته ، ولا ننسى أن عبد المطلب هو الذى ربى محمداً وهو صغير بعد أن فقد والده عبد الله ، و مهما يكن من أمر، فإن ضمام سأل عن ابن عبد المطلب ، وأجاب النبى – صلى الله عليه وسلم – دون غضاضة أو انفعال : أنا ابن عبد المطلب !

النبى – صلى الله عليه وسلم – هو الداعية ، والداعية لابد أن يصبر ويحتمل، حتى لو كان المدعو خشناً وفظاً فى كلامه وسؤاله ، وإلا ما استحق شرف الدعوة ، إن ضمام بن ثعلبة يعلن دون مواربة أنه سيسأل ابن عبد المطلب ، وسيغلظ عليه فى السؤال ، ولكنه يطلب منه أن لا يغضب عليه وألا يحمل فى نفسه شيئا منه ، ويجيبه الهادى البشير بصبر الداعية وأخلاق الدعوة :

" لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " أى إنه يخبره أن نفسه صافية لا تعرف الغضب من أجل النفس ، ولكنها تحتمل فى سبيل الدعوة ..

وهنا نجد السؤال الأول من ضمام يتعلق بصدق الرسالة والرسول .. أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله بعثك إليه رسولاً ؟ فيجيبه النبى صلى الله عليه وسلم – ببساط شديدة مؤكدا بعثته : اللهم نعم ، وسنرى الحوار يمتد ليتأكد ضمام من صدق الرسالة والرسول كى يدخل الإسلام .

**** ****

قصة إسلام صحابى جليل (٢)

كان ضمام بن ثعلبة فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قد قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – و أغلظ فى سؤاله أو أسئلته التى توالت على النحو التالى :" قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة ، فريضة ، الزكاة و الصيام والحج و شرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده فى التى قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله، و سأؤدى هذه الفرائض ، و أجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن صدق ذوالعقيصتين دخل الجنة " قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات و العزى !

قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون !! قال : ويلكم إنهما و الله لا يضران ،ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً و أنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده و رسوله ، و قد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه .

قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة ".

....

يبدو ضمام بن ثعلبة فى هذه القصة يسعى من خلال الإغلاظ فى القول للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى اكتشاف الحقيقة المقنعة . فقد جاء من بنى سعد ليعلم هل هذا الدين الجديد حق أم باطل ، و لأنه رجل لا يهوى تضييع وقته سدى أو فيما لا يفيد ، فهو يريد أن يصل إلى الصواب فى هذا الأمر الذى أثار حركة

فكرية عارمة فى أنحاء الجزيرة العربية كلها ، ما بين مؤيد ومعارض ، بين من يريد الحفاظ على التقاليد و عبادة الأصنام ، ومن يريد التعرف على الحقيقة و اتباعها مهما كان الثمن ..ومن ثم ، فإن ضمام بن ثعلبة يغلظ فى أسئلته و يخشن ، و يقدم لهذه الأسئلة تقديماً يجعل المسئول أيا كان لايجيب بغير الحقيقة ، فهو يبدأ السؤال بمناشده المسئول بالله " أنشدك الله إلهك و إله من كان من قبلك و إله من هو كائن بعدك .. " ثم يطرح سؤاله عن البعثة والتوحيد و خلع عبادة الأصنام ، و فرائض الإسلام و الشرائع كلها .. و الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجيبه بعبارة مؤكدة وقاطعة : " **اللهم نعم** "..

ومن الأسئلة و الإجابات التى تتدرج فى تصاعد شائق يشد المستمع أو القائمة إلى القصة النبوية الشريفة ، نجد " ضماما " يقتنع بالإجابات ، و يرتب عليها قراره التاريخى بإعلان الشهادتين و الدخول إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة .. و يعلن أمام النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه سيؤدى الفرائض التى فرضها الإسلام و الشرع الحنيف و سيجتنب مانهى عنه ، ولن يزيد ولن ينقص . ثم ينصرف إلى بعيره راجعا إلى قومه .

وهنا تكون البشارة النبوية المشروطة حيث يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم " إن صدق ذو العقصيتين دخل الجنة " إى إن صدق ضمام بن ثعلبة صاحب الضفيرتين أو الغديرتين فى إسلامه فهو من أهل الجنة .

هذه البشارة المشروطة كأنها حقيقة ، فقد رجع ضمام إلى قومه ، وحين وصل عندهم اجتمعوا به ، و بدأت تستبين ملامح صدقه و إخلاصه للدين الجديد ، و لقد **كان أول من قاله لهم** :" **بئست اللات و العزى !** "

إنها صدمة فاجعة لقومه الذين يعبدون اللات و العزى و يقدسونهما .
وها هو ضمام يعود من لدن محمد – صلى الله عليه وسلم – فيذمّ آلهتهم و فى مقدمتها " اللات و العزى " مما يدفعهم إلى نهره و مطالبته بالسكوت ، و تخويفه من الإصابة بالبرص و الجذام و الجنون !

" مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !!"

ولكن الرجل العاقل الذى اقتنع بالإسلام و آمن به يردّ عليهم رداً عقلياً ومنطقياً غاية فى البساطة، بعد أن ينذرهم بالويل و الهلاك إذا استمروا على حالهم .

" و يلكم ، إنهما و الله لا يضران ، ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

لقد ترتب على هذا الإقناع العقلى المنطلق أن قوم ضمام ، رجالاً ونساءً أمسوا مسلمين لله وحده ، تاركين عبادة اللات و العزى ، داخلين إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة كما سبق و أن دخلها ضمام .

إن قصة إسلام ضمام بن ثعلبة تقدم لنا من خلال حواره مع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قومه من بعد ، نموذجاً للعقل الإنسانى حين يتجرد من الغرض والهوى و يسعى إلى معرفة الحقيقة و الصواب ، مهما كلفه ذلك من مشقات و التزامات وهو ما يؤكد على احترام الإسلام للعقل و التفكير ، و يقدم برهاناً على ذلك أمام الخصوم وأعداء الإسلام الذين يصمونه بالخرافة و الأسطورة.. إن الإسلام دين الفطرة السليمة التى تؤكد على ملكية الإنسان المسلم لأجمل نعمة من نعم الله ؛ وهى العقل السليم الذى يقود صاحبه إلى آفاق الحرية و العمل والإنتاج و القوة و الإبداع و قبل ذلك الإيمان والتوحيد .

**** ****

زيجة مباركة

عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت :لما قسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس ، أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تستعينه فى كتابتها .

قالت عائشة : فوالله ماهو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها – صلىَ الله عليه وسلم – ما رأيت فدخلتْ عليه ، فقالتْ :

يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارثِ ، سيد قومه ، و قد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى ، قال : " فهل لك خير من ذلك ؟ " .

قال : " أقضى عنك كتابتك و أتزوجك " . قالت : نعم : يا رسول الله .

قال : " قد فعلت " .

قالت : و خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد تزوج جويرية ابنة الحارث .

فقال الناس : أصهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أرسلوا ما بأيديهم .

قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

حديث صحيح ، أخرجه أحمد و تابن سعدون و أبو داود و غيرهم .

....

هذه قصة مهمّة لأن لها أبعاداً عديدة ، و هى فى الوقت نفسه تقدم لنا أحداثها من خلال تشويق واضح ، تصنعه الغيرة ، و الأسر ، و التسامح . و تأتى فى سياق انتصار الإسلام المتصاعد على أعدائه و إخضاع خصومه لمنطقه العادل ، وتشريعه الإنسانى .

لقد انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق على محاربيهم ، و أخضعوهم ، وأمنوا شرّهم ، وكما هى طبيعة الحرب فى ذلك الزمان ، كان الغالب يستحوذ على المغلوب و يغنم ممتلكاته و أهله .. و بعد أن تضع الحرب أوزارها يبدأ المنتصرون فى تقسيم الغنائم وفقاً للتشريع السائد ، وكانت سورة الأنفال ، قد أوضحت تقسيم الغنائم عند المسلمين فى قوله تعالى : "يسألونك عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (الأنفال :١)

و قوله تعالى فى السورة ذاتها :

"وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ " (الأنفال :٤١)

و عند تقسيم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس أو ابن عم له ، أى صارت ملكا له بوصفها أمة أو رقيقاً يتصرف فيها كيف شاء وفقا لنظام الرق السائد آنئذ فى العالم كله .. ولكن الإسلام وضع نظاماً يتيح للارقاء أو العبيد أن يحرروا أنفسهم وذلك من خلال " المكاتبة " أى الاتفاق بين العبد و سيدّها على دفع مبلغ معلوم أو القيام بعمل معين إلى أجل معين ، نظير الحرية والانعتاق من الأسر.

و قد كاتبت " جويرية بنت الحارث " سيدّها ، لتنال حريتها و عتقها وقد ذهبت إلى الرسول – صلى الله عليه وسام لتستعين به على مكاتبتها ، فعرض عليها الرسول صلى الله عليه وسلم – عرضاً أفضل ، وهو الزواج منها مقابل قضاء ما التزمت به لسيدّها . فقبلت جويرية هذا العرض ووافقت على الزواج ، الذى كان سبباً فى عتق مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

كانت هذه الزيجة المباركة خيراً و بركة على أهل جويرية ، حيث تم فكّ أسرهم و تحريرهم ، و ما عُرفت امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

و سوف نرى أن حركة الأحداث فى القصة تتصاعد لتكشف عن طبيعة النفس البشرية و العلاقات التى تحكم الإنسان بأخيه الإنسان سواء كانت علاقات فطرية أم غيرها .

هانحن نجد عائشة رضى الله عنها ؛ تستشعر بطبيعة الأنثى غيرة واضحة من أنثى أخرى وصفتها بأنها " امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه " ، أى إن جمالها يؤثر على من يراها ، وحين علمت أنها أى هذه الأنثى الحلوة " جويرية " تريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كرهتها ، و عرفت أنه سيرى منها ما رأت . و الغيرة الأنثوية أمر طبيعى بين النساء ، و خاصة إذا كانت الأخرى ستشاركها الرجل الذى تحبّه ، ولكن الغيرة هنا لا تتعدى الطبيعة الفطرية إلى التعبير السلوكى الذى يتخذ أشكالاً غير طبيعية تصيب الآخرين بالأذى و الألم .

ولا شك أن زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان لغاية أخرى تتجاوز مجرد الزواج و البناء بامرأة من النساء ، وهذه الغاية تتضح من خلال القصة التى تشير إلى تأليف المجتمع الإسلامى و ترابطه ، فزواجه - صلى الله عليه وسلم - من جويرية انعكس على أهلها الذين أطلق سراحهم و صاروا أحراراً يخدمون المجتمع الإسلامى ويعززون قدرته ويدافعون عنه ، بعد أن كانوا خصوماً له و أعداءً .

و نلاحظ أن هذا الزواج انعكس أيضا على المسلمين الذين شاركوا فى الفرح و أرسلوا ما بأيديهم أى الهدايا تعبيراً عن سرورهم بما تمّ فى بيت النبوة ، مما يعنى أن نفوسهم خلت من الغضاضة تجاه بنى المصطلق الذين صاروا إخواناً لهم فى الدين .

لقد كانت " جويرية " امرأة ذكية بحق أراد الله لها الخير كل الخير - حين قبلت عرض الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - و تزوجته ، فأكرمها وأكرم قومها .. هذا و بالله التوفيق .

obeikandi.com